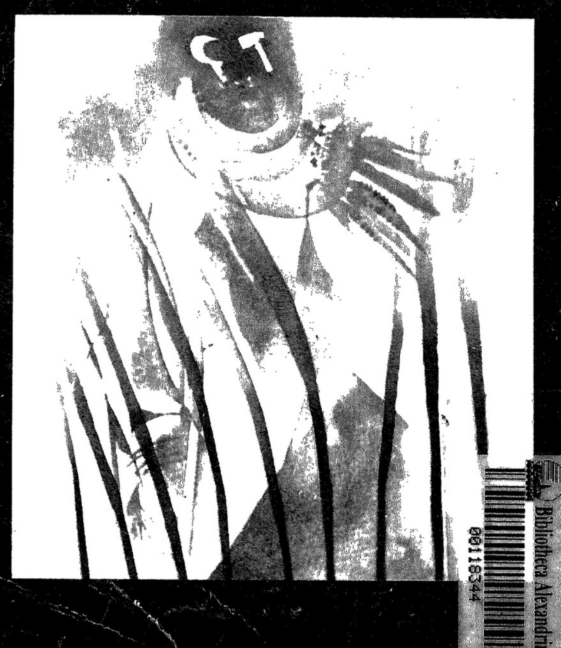
دفاتر فلسطينية

معين بسيسو



دار الفارابي - بيروت


دفاتر فلسطينية

معين بسيسو

دفاتر فلسطينية

دار الفارابي - بيروت
١٩٧٨

الطبعة الاولى — مايو — ايار ١٩٧٨
الطبعة الثانية — يوليو — تموز ١٩٧٨

الإهداء

إلى شعبنا الفلسطيني في زنازين
الأرض المحتلة يرفض أن يستنكر
فلسطينيته .

[signature]

« انهم يقولون عنك يا أوزوريس ...

ولو انك ترحل الا انك تعود ثانية .

ولو انك تنام الا انك تستيقظ ثانية .

ولو انك تموت الا انك تبعث مرة أخرى .

قف ..

حتى يمكنك ان تسمع ما نعمله حوريس لأجلك ..

ان حوريس يجمع لك اضلاعك حتى يلم شمل أجزائك دون نقص نبك .

يا أوزوريس .

انهض ...

ان حوريس يحبك » .

« من اوراق البردى »

هذه الدفاتر

... ها هي خمسة عشر عاما تمر على هذه (الدفاتر) والتي عاشت في الزنازين اكثر مما عاشت في الشوارع — رغيف السجون الذي اكله لاعوام طويلة الشيوعيون الفلسطينيون في قطاع غزة واصدقاؤهم المناضلون الوطنيون — والذين رغم ظروف الحصار والعزلة والمطاردة والضربات البوليسية المتلاحقة ، كتبوا احدى السيمفونيات الهامة في تاريخ شعبهم . فهم الذين هندسوا وفجروا انتفاضة مارس التاريخية ضد مشروع أسكان وتوطين اللاجئين في شبه جزيرة سيناء عام ١٩٥٥ وأسقطوه ، وكان اول شهيد فلسطيني يسقط رميا بالرصاص في الشارع هو شهيد الحزب الشيوعي في قطاع غزة : الرفيق حسني بلال محتضنا شعار حزبه :

— كتبوا مشروع سينا بالحبر
وسنمحو مشروع سينا بالدم

وهم في ظل الكعب الحديدية للاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة عام ١٩٥٦ ، كانوا الصوت الاول واليد الاولى للمقاومة والعمود الفقري للجبهة الوطنية المتحدة.

وفي اعقاب جلاء قوات الاحتلال الاسرائيلي للقطاع ، وقفوا مع كل القوى الوطنية المناضلة على اختلاف اتجاهاتها السياسية ، ضد مؤامرة تدويل قطاع غزة ، وعلى اكتافهم عاد ممثل الرئيس جمال عبد الناصر : ــ الفريق محمد حسن عبد اللطيف ــ الى ارض القطاع .

وهم في عام ١٩٥٨ ، وفي قلب الجبهة الوطنية المتحدة ، كانوا المتاريس التي تكسرت فوقها رقبة المؤامرة القديمة ــ الجديدة ، الحاق قطاع غزة بنظام الملك حسين .

وفي عام ١٩٥٩ ، كانوا مع اصدقائهم الوطنيين الذيــن شحذت على رقابهم سكين متصلة القوى الفاشية والشوفينية السوداء ، في اكبر حملــة مكارثية همجية ضد الشيوعية حيث اقتحمت مدارسهم ومراكز اعمالهم علــى امتداد القطاع ، بالهراوة والحجر والمسدس ، وحيث صدر اكثر من فرمان يبيح سفك دمهم ، فما استنكروا فلسطينيتهم ، وما عضوا الشيوعية .

وهم من ابريل ١٩٥٩ الى مارس ١٩٦٣ ــ رغم سقوط اقل من عدد اصابع القدم الواحدة ــ في زنازين السجن الحربي الدمويــة ، وفي معسكر التصفية الجسدية والسياسية في الواحات الخارجة ، قاوموا حتى ــ حافة الموت ــ مع رفاقهم في الحزب الشيوعي المصري ، أن يفتحوا ابواب بيوتهم باقلام استنكار الشيوعية ، وان يقصفوا بقذائف الورق : الوجه الاجمل في هذا العصر ــ الوجه السوفياتي ــ وكان لا بد من كتابة هذه الدفاتر :

ــ الجملة السياسية التي كانت تقول : ان نظام السادات ، سيقوم باستغلال هذه الدفاتر ، لم تعد قائمة الآن ، وبالذات بعد مرحلة : الكنيست ــ لارنكا ، وبعد لقم الرصاص التي يملأ بها نظام السادات كل يوم افواه العمال والفلاحين والطلاب في مصر ، والهتاف العلني الذي اطلقه بسقوط الشعب الفلسطيني في شوارع القاهرة ، وبعد ان تحولت اضراس السادات الى مطبعة للثورة المضادة ضد كل منجزات الجماهير الشعبية المصرية العريضة ــ في مرحلة جمال عبد الناصر ــ وبعد ان اعاد السادات بناء ــ الحرس الحديدي ــ ضد حركة التحرر الوطني العربي وحركة التحرر الوطني الافريقي ، وحركة التحرر العالمية ، واصبح الناطق الاميركي الرسمي في المنطقة لمكافحة الشيوعية والوطنية والديمقراطية .

ــ والطقس الساداتي الرديء الذي يضرب الجماهير العربية العريضة في مصر ، بجليد الثورة المضادة بكل ثقلها الاميركي ــ الاسرائيلي ــ الرجعي العربي،

يؤكد ان عملية تغطيس مرحلة معسكرات التصفية في الماء في : ــ ابو زعبل ، السجن الحربي ، الواحات الخارجــة ــ ليست ابدا عملية تعويم للحركــة الجماهيرية ، وانما هو القرار باغراقها .

ولم يكن الاعلان المشؤوم لحل ــ الحزب الشيوعي المصري ــ بعد مرحلة الخروج من زنازين معسكر الواحات الخارجة ، غير اعلان تبليط ــ اتوستراد الثورة المضادة ــ وان كل التبريرات والتنظيرات التي صاحبت ذلك الاعلان ، في الكلمة الاولى والاخيرة . كانت ضد الطبقة العاملة في مصر . وضد الطبقة العاملة العربية كلها ، وضد جمال عبد الناصر نفسه . وقرار حل الحزب هو في مستوى قرار تجريد الثورة من سلاحها تماماً .

ــ ان مفهوم ــ الاوقات غير الملائمة ــ ووضع دفاتر مرحلة العداء للشيوعية وللاتحاد السوفياتي ــ على الرف ــ حتى تجيء الاوقات الملائمة ــ بحجة زيادة رصيد العدو الطبقي والوطني ــ ضد مرحلة جمال عبد الناصر ــ ليس غير كارثة. فتأجيل نشر سياسة العداء للشيوعية ، هو وحده الذي يرفع رصيد العدو الطبقي والوطني . وطريق النضال ضد الامبريالية العالمية والصهيونية والرجعية العربيــة . لا يمر ابدا بمعسكرات الاعتقال التي تفتح لقادة الطبقة العاملــة والفلاحين والمثقفين الوطنيين .

ــ ان كل الاوقات ملائمة تماماً ــ مهما ارتفــع ترمومتر التضحية . وهذا ما يعيه الآن بوضوح تام . الرفاق في الحزب الشيوعي المصري . وبعد التجربة الدامية لحل الحزب .

ــ خلال اكثر من حوار . مع اكثر من حزب شيوعي في الوطن العربي ــ وفي العالم ــ فلقد اتضح وبعيدا عن قوالب الاسمنت الثورية الجاهزة ــ ان نضال الشيوعيين والوطنيين الفلسطينيين في قطاع غزة مع رفاقهم الشيوعيين والوطنيين المصريين في معسكرات الاعتقال . يجب أن يتكلم عن كيف قد تمكن شيوعيون فلسطينيون ومصريون . قد صدر الحكم عليهم بالموت ــ رمياً بالجوع والعطش والعري والكرابيج وانياب الكلاب ــ رمياً بالعصي حتى الموت ــ كيف تمكــن شيوعيون فلسطينيون ومصريون ــ بلا صيدلية وبلا كتاب وبلا راديو، بلا رسالة، بلا جريدة في عنفوان مراحل التصفية السياسية والجسدية ، كيف تمكنوا من الصمود والانتصار على برنامج الابادة والردة .

ــ وكما ان اخطاء الشيوعيين لا تخصهم وحدهم ، بل تخص الجماهير ايضاً ، انها تنزل الضرر بنضالها ، فمواقفهم الصحيحة ، ليست قطاعا خاصاً لهم بل قطاعاً عاماً للجماهير .

ـــ ان عدداً من الكتب قد صدر عن رفاق الزنازين المصريين ، عن التاريخ المرصع بالدم وبندى الشيوعية حول تجربة الحزب الشيوعي المصري في ـــ ابو زعبل والواحات الخارجة ـــ فكان لا بد أن تكتب ومن موقع المسؤولية الاولى ـــ هذه الدفاتر ـــ حول تجربة الحزب الشيوعي في قطاع غزة واصدقائه الوطنيين في السجن الحربي وفي الواحات الخارجة .

وكان لا بد ان تذهب هذه الدفاتر بعيداً في تاريخ الشيوعيين الفلسطينيين في القطاع على امتداد احد عشر عاماً من ١٩٥٢ ـــ ١٩٦٣ ، حينما خرجت آخر مجموعة منهم من بوابة السجن الحربي .

ـــ ان تاريخ الانتفاضات السياسية والمسلحة ـــ للجماهير في قطاع غزة ، في ظروف الاحتلال الاسرائيلي لم يصعد في غواصة ، ولم يهبط من طائرة هيلوكبتر ؛ بل جاء نتيجة حتمية لنضال الشيوعيين والقوى الوطنية المناضلة وبالذات عبر احد عشر عاماً من النضال الدامي ، حيث تم تدريب الجماهير العريضة ـــ في الشوارع والمخيمات ـــ على النضال السياسي المباشر ـــ وان عدداً كبيراً من المقاتلين في صفوف الثورة ـــ خارج قطاع غزة ـــ هم الذين تثقفوا سياسياً في ـــ المدارس ـــ على ايدي اساتذتهم من الشيوعيين والوطنيين ، وهم الذين كانوا ـــ قلب التظاهرات الخفاق ـــ فطلاب الامس هم مقاتلو اليوم .

ـــ ان عددا من الرفاق في الثورة الفلسطينية ؛ كانوا يلحون علي ، أن اقوم بكتابة هذه الدفاتر وبالذات في هذه المرحلة التي تلاحق فيها القوى التقدمية في الداخل والخارج وتنتشر فيها كوليرا العداء للجبهة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة .

ـــ ان ثقة رفاقي في الحزب الشيوعي في قطاع غزة ، وطيلة مرحلة الاحد عشر عاماً في موقع المسؤولية الاولى في الحزب ، تفرض علي ان اقدم هذه الدفاتر الى المطبعة ، ومن ثم للمكتبة الفلسطينية ، والى مكتبات الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، والاحزاب الشيوعية في العالم ، وهذا هو ما يستطيع أن يقدمه ـــ رفيق في المنفى ـــ الى رفاقه في قطاع غزة ـــ حزباً وجبهة وطنية .

ـــ لقد ارغمتني ظروف الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة ، على تقديم بعض اسماء رموز هذه الدفاتر بالحروف الاولى ، كما ينطبق هذا على بعض اسماء تلك الرموز في هذا الوطن العربي او ذاك .

ـــ في هذه الدفاتر وردت بعض الاسماء التي لعبت دوراً ، وسقوطها فيما بعد ، هو مسؤوليتها وملكيتها الخاصة ، فحينما كانت تلعب ذلك الدور في هذه المرحلة او تلك ، كانت تلعبه باسم الشعب فأصبح ملكيته .

ـــ ولا بد لي ان اسجل اعتزازي بالملاحظات التي جائتني من الرفاق في الثورة الفلسطينية ، ومن رفاقي في الحزب الشيوعي في قطاع غزة ، بعد ان قام الشاعر محمود درويش بنشر الحلقات الاربع من الدفاتر في مجلة « شؤون فلسطينية » :
(العدد ٧٠ ايلول ـــ سبتمبر ١٩٧٧) . (العدد ٧١ تشرين اول ـــ اكتوبر ١٩٧٧) .
(العدد ٧٢ تشرين الثاني ـــ نوفمبر ١٩٧٧) . (العدد ٧٣ كانون اول ـــ ديسمبر ١٩٧٧) . مواجهاً مسؤولية قرار مصادرة مجلة شؤون فلسطينية هنا او هناك .
وهناك ما لا بد ان يكتب :
ـــ انني اتوجه بالشكر العميق الى الرفاق في الاتحاد السوفياتي الذين يقومون الآن ـــ ممثلين في وكالة نوفوستي ـــ بترجمة هذه الدفاتر الى اللغة الروسية ، فأتاحوا لتجربة ارض صغيرة ، ان تذهب الى مطبعة الارض الكبيرة والانسان الكبير .
وهناك ما لا بد ان يكتب ايضاً :
ـــ لقد تصدى الحزب الشيوعي العراقي ـــ حزب يوسف سلمان ـــ رغم كل اعبائه في مرحلة ١٩٥٩ للمؤامرة التي كانت تستهدف تصفيتنا الجسدية في زنازين السجن الحربي . بعد أن غسلت ايديها تماماً من اسمائنا ـــ اجهزة الاعلام المصرية ـــ اذاعة صوت العرب ـــ احمد سعيد .
لقد قام هذا الحزب العزيز بنشر اسمائنا ، والجرائم التي سبقت ورافقت عملية اختطافنا ، وجعل من قضية الحزب الشيوعي في قطاع غزة وقضية الجبهة الوطنية قضية من قضاياه . والآن تقوم ـــ طريق الشعب ـــ بنشر حلقات هذه الدفاتر على صفحاتها .
وللحزب الشيوعي اللبناني . ولجريدة الاخبار التي كان يصدرها في تلك المرحلة ، تحية القلب واليد والدم . فهو الذي طبع صوتنا منشوراً سافر من بيروت الى العالم ، وفتح النوافذ على الكرابيج في ايدي سجانينا ، وتحولت احدى رئاته الى حجرة عمليات سياسية واعلامية لنا .
وفي خاتمة هذه الدفاتر :
ـــ اعرف أن صدورها ـــ في هذه المرحلة المكارثية ـــ مرحلة مطاردة الفلسطيني ـــ اسماً وجسداً وموقفاً سياسياً ـــ وبالذات حينما يكون انتماؤه للجماهير ومستقبلها ـــ سيطيل اظافر كل القوى التي تعتبر أن حائط الزنزانة ، وليس الورقة ، هو الذي يجب ان يكتب عليه الشيوعيون والتقدميون دفاترهم . ولكن الذي ثبت بالتجربة ، أن أيدي الشيوعيين والتقدميين ، كانت تشق دائماً حيطان الزنازين لتمسك بالنسيم القادم ، بأشعة الشمس القادمة من رئة الجماهير .
بيروت ـــ فبراير ـــ شباط ـــ ١٩٧٨

النزولُ إلى الماء

علمتني الزنزانة السفر لمسافات بعيدة ، وعلمتني ايضاً الكتابة لمسافات بعيدة . فالسجين دائماً يسافر بيده في الماء ويحاول الكتابة بصوته . ثلاثة اشهر لم نر فيها لا جريدة ولا كتاباً . أحد المعتقلين لتخفيف هول العذاب ، طلب القرآن فأحضروا له التوراة ؟ قالوا : ان الزنزانة نجسة ، والقرآن لا يدخل الزنزانة . هكذا فرضوا علينا نحن المعتقلين الفلسطينيين في السجن الحربي آلهة اسرائيل . وهكذا عاد شمشون الاسرائيلي من جديد . لقد تركناه في غزة كومة من الحجارة فوقها قبة صغيرة ما تزال حتى الآن الى جوار المدرسة الوطنية فاعادوه لنا الآن سجاناً في السجن الحربي .

★ ★ ★

على حائط الزنزانة يكتب المسجونون أسماءهم ، يحفرونها بزر قميص او

بمسمار . اول ما يفعله السجين هو ان يكتب اسمه على حائط الزنزانة . انه دائماً يكتب اسمه وتاريخ دخوله السجن والوطن الذي جاء منه . وكبشارة للسجين الذي سياتي للزنزانة بعده فالسجين دائما قبل خروجه.يكتب تاريخ الافراج عنه كأنه يريد أن يقول لابنه أو لحفيده السجين القادم :

ـ ما سجن انبنى على سجين .

ولا مستشفى انبنت على مريض . . .

★ ★ ★

عليك ان تسافر فباب الزنزانة في السجن الحربي يفتح ثلاث مرات في اليوم. مرة في السادسة صباحاً حينما تمد يدك وتتناول (القروانة) وفوقها الرغيف وبعدها تخرج جردل البول . فمسافة العشرين متراً الى دورة المياه كان ممنوعاً على السجين ان يمشيها . فهم لا يريدون ان تتذكر ابدا انك كنت تمشي ذات يوم . انهم في حرب مستمرة ضد ذاكرة القدم. ويفتح باب الزنزانة في الواحدة بعد الظهر على القروانة نفسها وفوقها الرغيف . الكلب البوليسي (لاكي) قد اكل قطعة اللحم في حجم رأس الدجاجة . في الشهر الرابع كان (لاكي) يمضغ قطعة اللحم فقط ويبصقها الى جوار القروانة . وعليك ان تمد يدك وتتناولها وتاكلها أمام السجان . كان (لاكي) هدية من (المانيا الغربية) . ضمـــن برنامج المساعدة الاقتصادية وفي الواقع فقد اكل من اللحم وشرب من المرق اكثر بكثير من الذي قدمته المانيا الغربية لانعاش الفلاحين المصريين . وكما ان الكتابة تجيء في خطوط مستقيمة . هكذا تعلمنا الكتابة . غير ان الزنزانة تعلمك كتابة جديدة . والزنزانة تفتح للمرة الثالثة قبيل الغروب . القروانة نفسها وفوقها الرغيف ويغلق باب الزنزانة بعدها حتى السادسة صباحاً .

★ ★ ★

الجاويش (حسن المشرف) في سجن مصر العمومي والمشرف على المعتقلين الفلسطينيين في الدور الارضي ، كان يقشر الموز امام باب كل زنزانة ويبتلعه اصبعاً بعد آخر وهو يقول :

ـ هذا موز تعلموا ايها الجواميس .

اما الجواميس فقد كانت أريحا على خريطة وطنهم ، واوراق الموز كانت اقماطهم حينما يولدون . ولكن الجاويش (حسن) لا يعرف الجغرافيا . وبدل ان يعلموه كيف يقرا ويكتب ؛ علموه كيف يضرب . هذا التعس الذي وضعوا الكرباج في يده ؛ كان له ولد في الجامعة في يده قلم . وحينما تم ترحيلنا من سجن مصر

العمومي الى سجن القناطر الخيرية ، بكى الجاويش حسن وقال :
— لقد أخبرني ولدي انه يوجد في بلادكم موز .

★ ★ ★

على حائط كل زنزانة يحاول السجين ان يرسم سفينة او طائرا . فالسفينة في السجن هي دائما هدية السجين القديم للسجين الجديد :
— لن ينمكنوا من قتلك ما دمت تسافر .
انها وصية السجن الخالدة . والسجان (الجوهري) كان يريد ان يسافر هو الآخر خارج اسوار السجن الحربي . فالسجان يعتبر نفسه سجيناً ، وهو سجين بالفعل فطول نهاره وليله في السجن . ولان وصية السجن الخالدة تنطبق عليه ، فلقد كان السجان (الجوهري) يسافر بصوته . في الليل كان يغني لنا ، كان يغني للمعتقلين الفلسطينيين الذين ضربهم وجعل (الكلب لاكي) يعضهم . كان (لاكي) يعضك في صدرك وفي ظهرك ، في كتفيك وفي فخذيك دون ان تسيل قطرة من الدم ،كأنه كان يضع قفازات في أنيابه ، هكذا علموه كيف يعض حتى لا يتمكن السجين من النوم لا على صدره ولا على ظهره .
— انت واقف يا ابن الكلب اقعد .
ويقعد المعتقل الفلسطيني الذي تعود القعود خارج ارضه .
— انت قاعد يا ابن الكلب تف .
ويقف المعتقل الفلسطيني الذي تعود الوقوف خارج ارضه .
هكذا كنا نقعد ونقف طول النهار وجزءا كبيراً من الليل . والسفر كان مستمرا ايضاً طول النهار وطول الليل . مرة واحدة في الاسبوع كانوا يقدمون لنا بيضة عند الفطور . فجأة تتذكر انه يمكن ان يخرج من البيضة شيء ما ، فاذا كنت لا تستطيع ان تحطم قشرة الزنزانة وتخرج ، فهنالك شيء ما يمكن ان يحطم قشرة البيضة ويخرج . لم آكل البيضة ، وكنت اتصور طول الوقت ان منقاراً صغيرا سيضرب القشرة ذات يوم . ولقد طال انتظاري .

★ ★ ★

في الزنزانة انت لا تريد ديكاً يصيح ، ولكنك تريد سفينة تسافر . والسجان (الجوهري) كان يريد ان يسافر في الليل، ففي النهار كان عليه ان يضربنا لحساب الآخرين ، وفي الليل كان عليه ان يغني لحسابه الخاص . كان السجان يحب .
— قالوا انك تكتب الاغاني .
تحس بالفرح ، فحينما يتذكر سجانك ان قلما كان ذات يوم في يدك فلعله

ينسى الكرباج ولو لدقائق في يده .
أعطاني أول سيجارة في اليوم الخمسين وقال لي
ـ اكتب .
ـ اكتب ماذا ؟؟
ـ اكتب اغنية لي .
وكتبت أول اغنية مقابل سيجارة . في الاسبوع الثاني حمل السجان اول رسائلي ، فلقد اعطاني قلماً وورقة ، وكتبت الرسالة الاولى وارسلتها معه ، وكانت الى خطيبتي (انتصار) ، وكانت أول مشروع عروس فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي .
هكذا تحول السجان الى ساعي بريد في السجن الحربي .

★ ★ ★

ـ ايها الكذابون لا يوجد معتقل فلسطيني واحد في مصر ؟؟
كان الصوت صوت (أحمد سعيد) ، وكان يرتفع من اذاعة صوت العرب ، وكنا نسمعه جميعاً في الزنزانة فلقد تمكنا من تهريب راديو ترانزيستور ، كان (احمد سعيد) هو الماركة المفضلة للراديو العربي في ذلك الوقت ، وكان يوجه صوته لهواء ثورة ١٤ تموز في العراق في ذلك الوقت أيضاً .
خليل عويضة المشرف العام على التعليم في مدارس اللاجئين في قطاع غزة والمعتقل ايضاً لانه رفض ان يعترف بحذاء الشرطي سمكة في بحر غزة ، ودافع عن اصبع الطباشير في يد الطفل الفلسطيني ، صاح وهو يصغي الى صوت احمد سعيد :
ـ انه يكذب . . . يكذب فنحن في السجن الحربي .
في ذلك الوقت كانت المطبعة تكذب وكان الهواء يكذب ايضاً . ورغم ذلك فلقد انقذنا الهواء القادم من راديو ثورة ١٤ تموز .
تسافر .
يعوم صوتك في الماء .
وانا في السابعة اراد عمي (احمد) ان يعلمني السباحة . كان يملك زورقاً صغيراً ووضعني في الزورق وراح يجدف . وفي وسط البحر امسك بي والقاني في الماء ، وشربت الملح وعرفت للمرة الاولى كيف اقاتل بذراعي وحينما أوشكت على الغرق ، اعادني الى الزورق لكي يلقي بي مرة ثانية الى الماء . وهكذا تعلمت السباحة وانا في السابعة من عمري . كان عمي يعلمني وهو لا يدري كتابة الشعر

وانا مدين له حتى الآن ـــ بهذه النيران ـــ التي تندلع طول الوقت من بين أصابعي. علمني كيف اقاتل ضد الماء وانا في السابعة من عمري ، والآن وانا اقاتل معركة الورق والحبر اعرف ما قد فعل بي . انهم يحتقرون الثعالب ولكنهم يشترون فراءهـــا ؛ ويكابدون كثيراً في سبيل اصطيادهـــا ، يحتقرون القصائد ولكنهم يشترون الشعراء .

في العاشرة من عمري اخذتني أمي الى العرافة (أم حسن) لكي تطرد الشياطين التي تسكنني . بعـــــد أن وضعت يدهـــا فوق راسي وحدقت في عيني ، صاحت :

ـــ لا خوف عليه منها فهي شياطين طيبة .

★ ★ ★

صعود الجبل لا يتم في خط مستقيم وكذلك السفر داخل الزنزانة . فحينما تسافر في مركب لأول مرة فعليك أن تتعلم اخطاء الموانيء واخطاء الجغرافيا .

كان سيد درويش هو القصيدة التي قاتلت بها وانا صغير وأقاتل بها حتى الآن ضد الاصوات المعلبة عبثاً حاول الدكتور ـــ لويس عوض ـــ أن يقتعني أن (احمد شوقي) كان أعظم من (المتنبي) .

اول من نشر لي قصيدة في مصر كان شاعراً مصريا اسمه : عبد الرحمن الخميسي . واول من دافع عن ديوان شعري الاول كان صحفياً مصرياً يكتب الشعر اسمه : كامل الشناوي . كان كامل الشناوي هو أول من تدمني الى توفيق الحكيم عام ١٩٥٢ في مبنى الاهرام القديم .

اخرج كامل الشناوي ديوان « المعركـــة » مـــن درج مكتبه وقدمـــــه لتوفيق الحكيم وقال :

ـــ اسمع .

وراح يقرا قصائد ديوان « المعركة » :

ـــ انا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح .

كانت القصيدة عن (عباس الاعسر) أول شهيد لحركة انصار السلام المصرية في قناة السويس عام ١٩٥١ . في مطبعة (أورفند) تم طبع ديوان المعركة قبل حريق القاهرة بيوم واحد ، كان كل شيء يحترق وخرج الديوان يسجل رفضه للدخان .

لقد رسمته مجموعة من الرسامين المصريين : حسن التلمساني ، حامد ندا ، فريد كامل ، صلاح جاهين . وصدر الديوان عن ـــ دار الفن الحديث ـــ التي كان يشرف عليها : ابراهيم عبد الحليم .

بعد ان قرا توفيق الحكيم الديوان ، طلب توقيعي عليه ، كان يتصور انني احمل مسدساً ولكنني كنت لا املك قلماً .

كنت طالباً في الجامعة الاميركية في القاهرة حينما ظهر ديوان « المعركة » وكتبت عنه — بنت الشاطىء — مقالة في جريدة الاهرام — لا ادري كيف — من جريدة الاهرام شقت قصائد الديوان طريقها الى مجلة « الرسالة » . وحينما اغراني عبد الرحمن الخميسي بالذهاب الى مجلة « الرسالة » لقبض المكافأة ، اصر احمد حسن الزيات على ان يرى الشاعر الذي كتب هذه القصائد . كان يظن انني جئت اليه دكتوراً من السوربون ، فاذا بي ذلك الطالب في الجامعة الاميركية.

ليرحم الله كثيرا الدكتور زكي مبارك — من يذكره الآن في مصر — ؟ كان يخلط العرق بالكوكاكولا في بار التوفيقية ويصيح :

— لن يهلك الشاعر ما دامت الدموع في عينيه .

كنت ابكي كثيرا كلما ذبحوا دجاجة في بيتنا وكنت اصرخ :

— لن ترتكب غلطة اخرى .

المؤذن (خليل) كان يصعد بي الى المئذنة وانا في الثامنة من عمري ، لأول مرة ارتفع فيها عن الارض . يائيل دايان الكاتبة الاسرائيلية وابنــة الجنرال (موشي دايان) تعتقد ان الارتفاع عن الارض لا يتم الا بواسطة قاذفة قنابل .

في بيت جدي لابي كانت صورة جدي تحتل صدر الدار ، وكنت اظن طول الوقت انه هو الله . وعرفت فيما بعد ان الله لم يصوره احد بعد ، فصورته ممنوعة من التداول : الذي صوروه كان دائما شخصاً معلقاً فوق حائط . كنت احس دائما انه يريد ان يضع قدميه على الارض ويمشي ، لقد تعب من التعليق فوق الحيطان وفوق الاعمدة ، وبدل الشمعدان كنت احس انه يريد حذاء . لقد بدا الفلسطيني يعرف ان الله الذي رسموه فوق الحائط لا يريد شمعدانا ولكنه يريد حذاء .

★ ★ ★

المطر هو اعظم اصدقائي ، وحينما كان يسقط المطر كان يتسرب الى تفل الزنزانة ويفتحها فتخرج . والسفينة دائما تقف امام باب الزنزانة في انتظارك . تسافر الآن في القمح .

حينما تخلط لونين يخرج لون ثالث . فماذا كان يحدث حينما كان السجان يخلط بكرباجه مائة صرخة لمعتقل ؟ . .

العذاب دائما ياتي من خارج الزنزانة ، فحينما يبداون في تعذيب جارك في

الزنزانة المجاورة . يبدأ العذاب بالنسبة لك ، انك تنتظر دورك وهم يعرفون كيف يطيلون عذابك في الانتظار ، فقد لا يأتي دورك في هذه الليلة ولكن السنة النيران قد بدات تشتعل في عظمك . كل صرخة تأتي اليك من خارج الزنزانة لسان نار . دخان النيران يتسرب من جسد جارك المعتقل . انهم يذبحونه بالنار ويخنقونك بالدخان .

الدخان يتسرب الى الزنزانة ابرا ومسامير . انهم يدقون الدخان ابرا ومسامير في عظامك . لقد ادخلوك في التجربة ويجب ان تتذكر شيئا ما لكي تتمكن من المقاومة . تدخل كل الاصوات الى زنزانتك مختلطة كانها صراخ البط البري حينما يسقط في الشرك .

ـ محمد مهدي الجواهري ، لماذا يحوم كل هذا الذباب الازرق فوق اصابع يديه الآن ؟ لقد دخل مصر بدعوة شخصية من الدكتور طه حسين حينما كان وزيرا للمعارف في عهد الوفد المصري . الدخان يتحول الى ذباب . صدقي باشا يدخل البرلمان المصري وفي يده ديوان ـ اصرار ـ للشاعر المصري كمال عبد الحليم . وهو يصرخ :

ـ الشيوعيون في شوارع القاهرة ؟

في ذلك الوقت كانت القصائد في شوارع القاهرة .

كانت امي تخبىء قطعة كبيرة من اللحم لفؤاد نصار . عندما كان يأتي في منتصف الليل .

ـ انه يتعب كثيرا .

ولقد كان فؤاد نصار يتعب كثيرا . كان أول من وضعني أمام الميكروفون في اول اجتماع جماهيري لعصبة التحرر الوطني في سينما السامر في غزة وعرفني على اميل توما واميل حبيبي وقال لي :

ـ تكلم .

كانت المرة الاولى التي ارى فيها الشاعر عبد الرحيم محمود ، وجهه كان يشبه التفاحة . كان فلاحا فلسطينيا يكتب بالمحراث . هذا المحراث الفلسطيني ترك لنا جسده لكي نلقي فيه ببعض البذور . ومن الشبابيك المفتوحة دائما في يد عبد الرحيم محمود تعرفت على شاعر العصر الفلسطيني عام ١٩٤٦ :

ـ ابو سلمى ـ .

ـ ان امك تموت .

القي بالدفاتر واركض الى البيت ، كانت امي ممددة فوق السرير والى جوارها كان ابي وعمي احمد وعمي عاصم وخالاتي الاربع والطبيب والتصقت

بها ورفضت ان اترك الفراش . كانت في حاجة الى شيء ما وكنت احس ان في استطاعتي ان اقدم لها هذا الشيء .

★ ★ ★

في الثامنة من عمري تبعت ــ ثلجة وعبد الرحيم ــ كانا غجريين يمشيان على الحبل . ولقد ارضعتني تلك الغجرية . كانت ترضع طفلها وكنت عطشان فلاحظت عيني فأرضعتني . من يومها علمتني وهي لا تدري كيف أمشي فوق حبل من النار .

في الصباح حدثت المعجزة وعاشت امي . كان عليها ان تقاوم من اجل شيء ما فقاومت من اجلي وعاشت .

★ ★ ★

السجان يمسح كفه في حائط زنزانتي ، كان على اصابعه دم ــ فريد ابو وردة ــ .

حمزة البسيوني قائد السجن الحربي ياتي الآن . يأتي في اللحظة المناسبة ، فالصراخ يأتي من الخارج وهو يصرخ من الداخل :

ــ اكتب فقط انك لست شيوعيا .

انهم يعطونك القلم الآن . اولئك الذين كسروا اصابعك . يعطونك الورقة الآن اولئك الذين جردوك من ثيابك . اولئك الذين لا يعترفون الا بأنياب الكلاب البوليسية اقلاماً لهم . كانوا يريدون منك أن تكتب . تتذكر عيني امك . بحر غزة الذي تعلمت فيه السباحة وانت في السابعة من عمرك . انك ترى بوضوح وجه ــ فخري مرقة ــ . كان يعمل جاويشاً في مركز بوليس المجدل فوضع كل بنادق مركز البوليس في صندوق سيارة وهرب وانضم الى فصيل ــ الشيخ حسن سلامة ــ .

وأنا صبي زرت فخري مرقة في سجن عكا ، كان محكوما عليه بالاعدام ثم حكموا عليه بالسجن المؤبد وهرب من السجن وجاء الى غزة عام ١٩٥٧ واحببته كثيرا وكان دائماً يقول لي :

ــ الاغنياء لهم الله والبوليس . . .

والفقراء لهم النجوم والشعراء .

ــ اذا كنت لا تريد ان تكتب فتكلم . قل فقط انك لست شيوعياً وسوف تخرج . ولكن كل العالم كان سيسمعني لو قلت هذه الكلمات .

مخلص عمرو كان رئيس تحرير مجلة « الغد » وكانت صوت رابطة

المثقفين العرب .

عاش اجمل ايامه شيوعياً ، وحينما كان شيوعياً علمني الكثير

حمزة البسيوني يدق صوته كالمسمار في اصابعي ويصيح :

ــ قل انك لست شيوعياً وستخرج .

الزنزانة تمتلىء الآن بالوجوه . انك لست وحدك . انهم يريدون ان يكسروا صوتك لكي يكسروا عظمك . ويخرج حمزة البسيوني يتبعه الكلب لاكي والكلبة غولدا . لقد اطلقوا عليها اسماً اسرائيلياً ، اما انيابها فقد كانت انياباً عربية اصيلة مسنونة من المحيط الى الخليج .

ــ قل انك لست شيوعياً وستخرج .

تتذكر الجريدة التي لفوا بها الباذنجان والفلافل ، ومن هول العطش لقراءة اي شيء مكتوب ، تقرأ الجريدة الملطخة بالزيت ، وتستطيع ان ترى صورة الشاعر السوري شوقي بغدادي والقصيدة التي كتبها واخرجته من السجن :

ــ قد كنت ابناً ضال

يا عصبة الاوحال

وخالد الدجال . . .

المطر يسقط والدخان الذي كان يتسرب من اصوات المعتقلين ومن عظامهم قد اخذ يتلاشى في الماء .

وتبدأ السفينة تنزل الى الماء . بذرة الخشب التي هي نطفة الشجرة تلقح الماء الآن ويتمدد البرق كالجسد فوق سطح البحر والمعتقل الذي لا يملك منديلا يصنع صوته اشرعة تكفي لكي تصنع قميصاً لكل البحار ، يصبح الآن هو القبطان الذي اخذ يستقر فوق الماء .

ــ الشعراء عينهم على القمر ويدهم على الرغيف وفمهم مع السفينة .

وينزل الفم الى الماء ، تنزل السفينة ويبدأ السجين يسافر . يبدأ المطر يسقط . الجراد الذي لا يستطيع ان يقضم الماء يحلم بالسمك .

ــ لقد نزل الفم الى البحر واصبح سفينة .

الدفتر الأول

ولدت في بيت جدي لأبي في حي السجاعية في غزة . كان جدي من اجل مهابته يفرض على أولاده الثلاثة ان يسكنوا معه . يتباهى بأنه ارسل ابنائه الثلاثة الى جامعة استانبول . اما حينما كان يغضب على عمي الاكبر عاصم ، فقد كان يصرخ :

ــ أرسلتك الى استانبول لتعود بشهادة فعدت بحبل مشنقة .

عمي عاصم اول ما وصل استانبول اشترك في اصدار مجلـــة المنتدى العربي . كان الطلاب العرب يتعلمون لغة السلطان التركي لكي يتآمروا باللغة العربية ضد الاتراك .

والقي القبض على عمي عاصم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام .

يفلت عمي من حبل المشنقة بمعجزة . من يومها احببته . ــ فيما بعد ــ حينما كان الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ــ اللواء عبد الله رفعت ــ يستدعيه لمكتبه لكي ينذره بأنه سيعتقلني اذا لم اكف عن نشاطي ، كان يعود الى البيت ويصرخ :

ــ انك تحطمنا .

كانت زوجته ــ اخت امي ــ تقف دائماً الى جانبي وتصرخ :
ــ لم يحكموا عليه بالاعدام مثلما حكموا عليك .
دائماً حينما كان يسمع هذه الجملة كانت عيناه تلمعان ويهمس في اذني :
ــ الشيوعية شيء خطر .
وبالفعل كانت الشيوعية تشكل خطرا دائما وستبقى بالنسبة الى كل اولئك الذين كانوا وما زالوا يحاولون ان يفتحوا بيت فلسطين بالمفتاح الوحيد الذي يملكونه :
ــ الكرباج .

★ ★ ★

في رمضان كانوا يحضرون شاعراً لكي يغني لهم سيرة (ابو زيد الهلالي) كنت اجلس تحت النافذة واصغي للشاعر حتى خيوط الفجر الاولى . وما اكثر ما كانت امي تجدني ممدداً تحت النافذة . من يومها احببت الشاعر واحببت ربابته . بعدها كنت اهرب الى المقهى وانا في الثالثة عشرة من عمري لأستمع الى الشعراء الجوالين . هذه المخلوقات العجيبة التي كانت تتقمص شخصيات السلاطين والجن والابطال . في آخر الليل كانت الكراسي ترتفع والزجاجات تتطاير . لأن (ابو زيد) سجين وانصاره في المقهى لن يتركوه سجيناً ويمضون الى بيوتهم . وما اكثر ما ارغموا الشاعر بربابته على اطلاق سراح (ابو زيد) .
من يومها احببت الشعراء الجوالين الذين كانوا يعتقلون الجن والملوك والابطال ويطلقون سراحهم ايضاً .
كان ابي يأخذني معه دائماً في موسم الحصاد وفوق كومة من سنابل القمح كان يضع فروة خروف ويغطيني بفروة اخرى وهكذا كنت انام وتحت راسي سنبلة وفوق راسي نجمة .
في ايام الحصاد كان والدي يدعو اصدقاءه ، يذبح خروفا لهم ويأكلون ويشربون ويغنون حتى الفجر .
كل اصدقاء ابي كانوا من الصيادين وكان يحبهم كثيرا ، وهو اول من وضع البندقية في يدي وانا في الخامسة عشرة من عمري وعلمني كيف اضغط على الزناد . واصطدت حجراً وهرب الطائر . ولماذا يقتل الشعراء الطيور ؟ على الشعراء ان يقتلوا الاسمنت .
كان ابي دائماً يقول لي وانا امضي اوزع الطيور التي اصطادها على الجيران:
ــ كيس الصياد ليس له ، انه يصطاد لجميع الناس .

في وادي (الشريمة) قناة صغيرة من الماء تفصل غزة عن بئر السبع . كان يأخذني ابي معه الى الصيد وعلمني كيف احب الماء الذي تخرج منه الطيور .

★ ★ ★

في نادي غزة الرياضي كانت بداية علاقتي بعصبة التحرر الوطني : محمد خاص ، علي عاشور ، فتحي شراب ، فهمي السلفيتي .

أما فتحي شراب فقد اصبح يحمل الجنسية البريطانية فيما بعد ، وعصبة التحرر الوطني التي ارسلته الى ــ براغ ــ عام ١٩٤٩ لكي يدرس فلقد عاد يهاجم عمال براغ الذين قدموا له الرغيف والكتاب .

فهمي السلفيتي كان مسؤولا عــن العمال الفلسطينيين في المعسكرات البريطانية في لواء غزة ، رغم انه كان يركب دراجة ويتكلم كثيراً عن العمال ، كانت قدماه تكذبان بالنسبة لي ، وحينما تكذب القدمان تكذب اليدان ويتحول الفم الى لص .

علي عاشور عضو اللجنة المركزية لحزب (راكاح) الآن ، كان اول مسؤول لي في منطقة الرمال في غزة . اعتقله المصريون ثم جاء الاسرائيليون واخذوه معهم في احدى غاراتهم واصبح في حيفا .

فائق وراد المدرس في كلية غزة كان يشبه دائماً قطرة الماء . وحينما يتحول الفلاح الى مدرس تتحول الاشجار كلها الى اصابع طباشير .

حينما اصبح عبد العزيز العطي عضواً في عصبة التحرر الوطني كانت فرحتي الكبرى . كان ابن فلاح يمتلك بضعة أمتار من الارض وحينما اصبح شيوعياً أصبح يمتلك الكرة الارضية .

فؤاد نصار كان يأتي كل اسبوع الى غزة ، وفي مقر جمعية العمال العرب كنا نجتمع اليه على كراسي القش الصغيرة . كان يقول لنا دائما :

ــ العمال هم الوطن .

وحينما كان فؤاد نصار يتكلم عن العمال الذين هم الوطن . كان يعلمنا ان قيامة الارض تقوم حينما يقوم الفلاح . وبدات رحلة عصبة التحرر الوطني في فلسطين من اجل قيامة الارض .

كان فؤاد نصار اول مــن قدم لي ــ ابو ذر الغفاري ــ وقدم لي بعده ــ عبد الله بن علي ــ صاحب ثورة الزنج وعلمني كيف احب ــ ابو سلمى ــ شاعر ثورة ١٩٣٦ وشاعر الحركة الوطنية الفلسطينية . ورغم مشاكل العمال الذين هم الوطن ، ورغم مشاكل الفلاحين الذين هم القيامة كان يجد متسعاً من

الوقت ليكلمني عن المتنبي . ابدأ كان يرتبط بالشعر ، وحينما ارسلت مرة قصيدة لجريدة الاتحاد وكان فؤاد نصار يشرف عليها في ذلك الوقت ، نشرها المحرر الادبي في بريد القراء ، وهرعت لفؤاد نصار والجريدة في يدي ، والقيت الجريدة فوق الطاولة وانا اصيح :

— انظر ماذا فعلوا بي ؟؟

بعد ذلك بعامين في العشرين من أيار ١٩٤٨ كانت عصبة التحرر الوطني بقرار من فؤاد نصار توزع قصيدتي بصورة سرية :

احد يمر كذبت لا
احد يمر فلا حدود
انا لن ابدل حبل مشنقتي
ولا زرد الحديد
لكنه مر الرصاص
وخلفه مر الجنود
طردوا عن الارض التي
ولدوا عليها يعرقون
وسيعرقون وهم بأرضك
يقتلون ويقتلون
او حينما يتساءلون
متى تراهم يرجعون ؟
عصبوا عيونهم فما لمحوا
القنال ولا الوحوش
كم دنشواي على مخالبهم
ممزقة تعيش
وحفرت صوتك خندقا
سدوا الطريق على الجيوش
فلاحنا اشحذتها
هذي الشراشر الحصاد
قد اقبلوا واستبشر الملاك
خيرا بالجراد
وسيذبحونك بالشراشر
فوق اكوام الحصاد

كذابة هذي المدافع
لا تصدق ما تقول
لم تحتمي بالزيتون أو بالبرتقال
او النخيل
بل بالمشانق والسلاسل
بالسياط وبالسيول
انا لست اقرأ كفك العطشى
لأعرف ما المصير
بصمات الاستعمار نوق وجوههم
وعلى الظهور . . .
وعلى بنادقهم عرفت بها
الخيانة والمصير
اسدود خندقه الاخير
وليس خندقه الاخير.
قد باع غزة قبل اسدود
الاجير الى الاجير
ان عشت تبصرهم وقد حملوا
الرؤوس على الظهور
وانا وانت وكيف اجرؤ :
ان اقول
لولاهم لفرشت بيتك
بالزنابق يا نهيل
ولشب توفيق الصغير
ومع ريموندا ومع راحيل .

★ ★ ★

في اكتوبر ١٩٤٨ ذهبت الى قسم الآداب في الجامعة الاميركية في القاهـ والقاهرة في ذلك الوقت كانت بالنسبة لي هي عبد الرحمن الخميسي الذي كلمة السر الشعرية الى روح مصر . ومجلة « الرسالة » التي كان نشر قصـ واحدة فيها يجعل لك اسماً في الشعر .

وحينما وصلت القاهرة كان عبد الرحمن الخميسي مشغولا بكتابة ـــ

ليلة وليلة الجديدة ـ . وبعد ذلك شغلته القصص عن الفدائيين المصريين في قناة السويس .

دات مرة اعطيته قصيدة لنشرها في جريدة المصري ، ولسوء حظ القصيدة غضب مني لأنني قلت له انني افضل الف ليلة وليلة القديمة .

في الصباح وفي الصفحة الادبية التي كان يشرف عليها الخميسي ظهر اعلان عن احذية « باتا » ، وقد حل مكان القصيدة . ولكنني في مصر تعرفت على الكاتب المصري ابراهيم عبد الحليم وعلى اخيه الشاعر كمال عبد الحليم وعلى صلاح حافظ ، وعلى الرسامين زهدي ، وحسن فؤاد ، وحامد عبد الله ، وحسن التلمساني ، واحمد طوغان ، وعلى فؤاد حداد ، وكامل زهيري ، ولطفي الخولي ، وعلى نائب البرلمان الشاعر عزيز فهمي الذي كان صوته المع الاصوات التي ارتفعت ضد مشروع تقييد حرية الصحافة والذي كان فؤاد سراج الدين باشا يريد تقديمه خلال النائب اسطفان باسيلي .

وجدت نفسي في جريدة « الملايين » الاسبوعية ، كان رئيس التحرير احمد صادق عزام وكانت « الملايين » صوت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني .

اول من قدم لي الشاعرين الفرنسيين ـ اراغون ، وايلوار ـ كان الشاعر فؤاد حداد . وحسن فؤاد وزهدي الرسامان المصريان قدما لي بيكاسو . وصلاح جاهين قدم لي فونتمارا والخبز والنبيذ لاغنازيو سالوني . هؤلاء الذين قدموا لي كل هذا الشعر وكل هذا اللون قدموني لمصر . ولولا عمال مطبعة اورفند الذين دافعوا عن مطبعتهم في وجه المحرقة لما ظهر ديواني الاول « المعركة » .

وانا سأظل مديناً لعمال المطابع في مصر الى الابد . ودائماً كنت اقول للرفاق :

ـ كان عمال مطبعة اورفند يدافعون عن قصائدي .

وسواء كان يدافع عمال المطبعة عن قصائدي ضد حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، أو عن مطبعتهم ، فالعمال كما كان يقول فؤاد نصار :

ـ هم الوطن .

وانا اضيف :

ـ والوطن هو الشعر .

بعد حريق القاهرة أخذ الدخان شكل الحجارة ، وبدات غارات البوليس . كنت في السنة الدراسية الاخيرة في الجامعة الاميركية في القاهرة ، ولقد بدا البوليس يبحث عني . لم يكن يتصور ان شاعر ديوان المعركة هو طالب في الجامعة الاميركية ، وهو الذي يردد شعره كل ليلة في مكتبه في جريدة الاهرام : كامل الشناوي . وهو الذي يجوع الآن في حجرة فوق مقهى « ايزافيتش » وهو

الذي يصعد صوته من كفه :
لمن الشارع من يملكه ،
نحن أم من يملك الجيش الكبير ،
طردت منه الجماهير التي
زرعت من قلبها فيه القصور . .
لم تعد تدوي به صيحاتها
وهي في ثورتها الكبرى تسير
حاكموها
عاقبوا كل فم ،
صارخ في وجه حفار القبور
هذه أرضي ولن ازرعها
جثثاً ،
بل سنبلات وزهور

●

لمن الشارع لا صوت به
يا رفيقي غير اشباح الجنود
غير — قف من انت تدوي — كلما
ملأ الشارع ظل لشهيد
غير ان الشارع الدامي لنا
رغم ما صفوا عليه من جنود . . .

★ ★ ★

عشت على البطاطا المسلوقة لمدة اسبوع ، صلاح جاهين اغراني بطلب مقابلة الحاج امين الحسيني ، كان يقول لي :
— سوف يساعدنا .
لقد اصبح المطارد صلاح جاهين فلسطينيا هو الآخر .
— تخلى صلاح جاهين الآن عن مصر الفلسطينية وعن فلسطين المصرية — واشترى الحاج امين مائة نسخة من ديوان المعركة .
وهكذا في اول عشاء مع صلاح جاهين صرخ :
— لقد اكلنا عشر نسخ من الديوان .
وتبدد ثمن المائة نسخة من ديوان المعركة على مائدة في مقهى شهريار في

الجيزة حيث كان يجلس : زكريا الحجاوي ، وبكر الشرقاوي ، وعبد الرحمن الخميسي ، والرسام احمد طوغان .

★ ★ ★

حينما كنا نجوع كنا نذهب الى الشاعر المصري محمد علي ماهر ، كان يعمل باشكاتبا في مستشفى الاطفال . كان محمد علي ماهر يجمع كل كبد الدجاج ؛ يقليه في السمن ويقدمه لي ولعبد الرحمن الخميسي ولعبد المنعم عبد العزيز .

بعد الشبع ، كان عبد المنعم عبد العزيز يصيح في وجه محمد علي ماهر

ــ يا سارق اكباد الاطفال ؟

كان الرفاق من الشيوعيين المصريين يحاولون الاتصال بي طيلة عام ، وحينما عثروا على تناقشنا حول قضية واحدة وكانت القضية تدور حول مستقبل اول لجنة لانصار السلم تؤلف في مدينة غزة .

وحملت الرسالة الصعبة الى غزة . في النادي القومي في غزة تم اول لقاء بالمناضل الشيوعي : فايز الوحيدي . لجنة السلام الفلسطينية في ذلك الوقت كانت سيئة الحظ ، فلقد تم القاء القبض على الخلية الشيوعية الرئيسية في غزة : عصبة التحرر الوطني .

الضابط فخري بسيسو ــ جاء ليقول لي ــ :

ــ كن حذراً هذه الليلة .

ومضيت لكي احذر رفيقين من عصبة التحرر الوطني : محمد خالد البطراوي وعوني سيسالم ، قابلت الاول فوق قضبان سكة الحديد ، وكان يعمل محاسباً في شركة تجارية ، وقابلت الثاني في المقبرة . وهرب الاثنان .

كان علي أن اعمل شيئاً ما فاصبحت مدرساً في مدرسة الحكومة في السجاعية . امام تلك المدرسة بيارة جدي لابي . كنت أحس انهم ينشرون لحمي كلما كانوا يقطعون اشجار الزيتون لكي يزرعوا بدلا منها شتلات البرتقال . اصبحت مدرساً للغة الانكليزية ، وكان مدرس اللغة العربية يحاول أن يجامل المدرسين المصريين ويقول لهم :

ــ احمد شوقي شاعر كل العصور .

وحينما شتم ذلك المدرس المتنبي ذات يوم بصقت في وجهه ، وقدم تقريراً ضدي الى احمد اسماعيل ، وكان المشرف في ذلك الوقت على التربية والتعليم في قطاع غزة .

ــ ما دام يبصق على احمد شوقي فلا بد أن يكون شيوعياً .

هكذا قالوا . ولكنني كنت أدافع عن الشعر .

لم يعد لي خبز في تلك المدرسة التي كانت حولها طفولتي ، تجري مرة كجدول ، ومرة اخرى تأخذ شكل الرغيف ، ومرة ثالثة،تأخذ شكل نواة المشمش التي كنا نجففها ونلعب بها .

★ ★ ★

سافرت الى بغداد وكان في جيبي عقد مدرس . أول ليلة سهرت فيها في بغداد كانت مع ناظم حكمت . وبالدينار الوحيد الذي كان معي اشتريت زجاجة نبيذ وتفاحاً وديوان شعر ناظم حكمت . في الصباح سافر معي ناظم حكمت الى الديوانية ومنها الى قرية الشامية ، ولقد ظل يسافر معي .

أكثر من يحترم المدرسين هم الفلاحون . كانت المشكلة اين اقيم ، وناظر المدرسة لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل بي .

تطوع أحد المدرسين العراقيين واستضافني تلك الليلة . وحمل البواب حقيبتي الوحيدة .

دعاني ناظر المدرسة لتناول العشاء معه وبعد العشاء قادني الى البيت الذي قبلني كضيف فيه .

حينما فتحت الحقيبة وجدت ان شيئاً ما قد حدث ونظرت الى المدرسين الثلاثة فكانوا يبتسمون .

لقد تم تفتيش الحقيبة . « عباس العادلي » يتقدم مني فاتحاً ذراعيه وهو يلوح بديوان المعركة :

ـــ اهلا بك في العراق .

كان ديوان المعركة الذي حملته معي من غزة الى بغداد هو أوراق اعتمادي كفلسطيني الى الشيوعيين العراقيين . لم يرتبط حزب شيوعي بالشعر مثلما ارتبط الحزب الشيوعي العراقي . لقد كان الحزب رئة من الشعر .

في مدرسة الشامية كنت ادرس اللغة الانكليزية . يطحنون سعف النخل ويعجنونه ويصنعون منـــه اقراصاً يجففونها تحت الشمس ويأكلونها . هؤلاء كانوا تلاميذي .

لبعضهم كنت اعطي دروساً مجانيـــــة خاصة ، وحينما ارسل أحـــد الاقطاعيين ، « الشيخ رابح عطية » أحد رجاله ليضربني ، كان ابا لتلميذ كنت اعلمه بالمجان .

وسقطت الهراوة من يد الاب . كان عامل مضخة للمياه ، وكان أول من

قدمت للحزب الشيوعي العراقي . في ذلك الوقت من بداية عام ١٩٥٣ كان الحزب يقاتل ضد الانقسام وضد نوري السعيد ، من اجل وطن حر وشعب سعيد .

واتصل بي الحزب بعد ثلاثة اشهر من وجودي في الشامية . ولقد تعلمت الكثير من اليد السرية لذلك الحزب.

★ ★ ★

كنا نحن المدرسين الاربعة كل مدرسة الشامية الثانوية للبنين والبنات . كانت مدرسة مختلطة وفي قرية في العراق عام ١٩٥٣ . كنت أدرس اللغة الانكليزية وعباس العادلي يدرس الرياضيات وكاظم الشمرتي يدرس اللغة العربية ومدرس رابع نسيت اسمه كان يدرس الجغرافيا والتاريخ .

وبدأت الايام تمشي في قرية الشامية ، كنا نقدم الدروس المجانية للطلاب وفي المساء كنا نقوم بتصحيح الدفاتر وتحضير الدروس لليوم القادم ، ثم تمتد المناقشة حول ما حدث في فلسطين وحول ما يحدث الآن في العراق . حادث لن انساه في حياتي فحينما بدأت مؤامرة نوري السعيد بطرد اليهود من العراق ، كان من بين اليهود المطرودين شيوعية يهودية عراقية رفضت ركوب الطائرة فضربها عسكر نوري السعيد حتى سقطت فوق سلم الطائرة وجروها فوق وجهها الى داخل الطائرة وهي تصرخ :

— هذا وطني .

ومثلما الطائر تمتلىء حوصلته بالقمح ، يمتلىء صدرك بنسيم الاساطير القادمة من يد الحزب .

مرة قرانا قصيدة الجواهري في مديـــح ولي العهـــد وكانت صدمة كبيرة بالنسبة لنا نحن الذين قرانا الجواهري ، فقررنا في خلية الشامية وبالاجماع : حرق محمد مهدي الجواهري .

كومنا دواوينه واشعلنا فيها النار ، وفي التقرير الشهري للحزب كان أول ما كتبته هو قرار اشعال النيران في قصائد الجواهري . وجاء رد الحزب في صورة منشور خاص بالجواهري كان عنوانه « محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الاكبر » .

هكذا علمني الحزب كيف استخدم النيران وبشكل آخر .

★ ★ ★

في ذلك البيت في الشامية كان كل واحد منا يتولىٰ مالية البيت لمدة شهر . في الشهر الذي اصبحت فيه مسؤولا عن البيت كنت اعود ومعي سبعة او عشرة

طلاب ، وهكذا افلسنا في منتصف الشهر . لم نكن نعرف في ذلك الوقت لا بقالا ولا بائع طيور .

وهكذا جلسنا بعد الظهر ننظر لبعضنا البعض ، وفجاة التمعت عينا عباس العادلي . كان ينظر الى الحمام في ساحة البيت . وبدأنا العمل فوراً كاننا كنا نفكر في موضوع واحد . كل منا انقض على حمامة ولقد فوجىء الحمام ، فلقد كان طول الوقت يمشي بيننا . منذ ذلك الوقت عشنا على أكل الحمام . وربما كنا أول من أكل الحمام في قرية الشامية . بعد ذلك أصبحت عملية اصطياد الحمام عملية صعبة جداً فلم يعد يهبط من أعشاشه على سطح بيتنا وينزل الى صحن الدار . كان علينا أن نستخدم السلم لاصطياده في أعشاشه ، ووضعنا السلم فوق الجدار وكان مخلعاً ، صعد عليه عباس العادلي بعد حوار طويل ، مد عباس يده الى عش حمامة ولكنها زاغت من يده وطارت وهي تخبط وجهه بجناحيها وتبعها الحمام واختل توازن عباس فوق السلم فسقط . وفي الصباح رآه الطلاب وهو يعرج ورأوا الكدمات على وجهه ، ولم يعرفوا أن مدرس الرياضيات سقط من علو ثلاثة أمتار وهو يصطاد حمامة .

★ ★ ★

بدات منشورات الحزب وكراساته تظهر في قرية الشامية . كل شهر كانت تأتي البوسطة وكنت قد اقمت سقفاً سرياً ثانياً تحت سقف حجرتي لأخفي المطبوعات . ومع ظهور مطبوعات الحزب بدأ البوليس السري في الظهور ، ولكننا كنا بالنسبة لأهل القرية أربعة من المدرسين المحترمين الذين يقدمون الدروس المجانية للطلاب ويسهرون يصححون الدفاتر .

★ ★ ★

« فريد ناجي » ـــ حتى النار لا يمكن أن تمحو اسمه من يدي ـــ كان اعز طلابي وكان مصاباً بروماتيزم في القلب . استعار مني رواية « الام » لجوركي ومات ولم يتم قراءة الرواية . وضع سعفة نخل في منتصف رواية الام وبعدها توقف قلبه عن الخفقان . وحملناه فوق سيارة وذهبنا لندفنه في مقبرة النجف . لقد رايتهم وهم يغسلونه ولكنهم لم يستطيعوا ان يغسلوا اسم جوركي فوق جلده . أردت أن ادفن معه كتاب الام ولكنهم رفضوا . ربما خافوا أن يقوم كتاب بعمل انقلاب وهو تحت التراب .

الخلية الاولى أعطت الخلية الثانية ولكن الامتحانات النهائية قد جاءت وكانت أهم الاحداث في المدرسة .

بدا حبر المناشير يفوح في شوارع الشاميه وبدأت الرقابة البوليسية تشتد . كان علي ان افعل شيئاً ما كي افلت من المصيدة . وجاء مندوب من الحزب وطلب مني السفر معه فوراً الى بغداد . وسافرنا في الليل الى النجف ومنها الى بغداد .

في بغداد كان قرار الحزب ان اغادر العراق ، لقد انتهت السنة الدراسية ووزارة المعارف لن تجدد عقدي ، ثم علي ان احمل رسالة معي الى الخارج .

وكانت رسالة الحزب حقيبة من الخشب امتلأ بطنها بمطبوعات الحزب .

ولا ازال اذكر انني اضررت على حمل الحقيبة الخشبية :

ــ اذا قبضوا علي فلا يهم ، اما انت فهم يحتاجون لك كثيراً .

وسلمني الرفيق الحقيبة ومضيت بها الى فندق الرشيد .

كانت هدية الحزب الشيوعي العراقي الى الشيوعيين المصريين والشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة ، وكانت من اجمل الهدايا التي حملتها في حياتي ، وأنا مدين بوصول هذه الهدية الى مصر وقطاع غزة الى مدرس فلسطيني من غزة كان يعمل في العراق اسمه كمال الطويل . حينما وصلت الى مطار القاهرة عرفت انني في القائمة السوداء وانطلق ذلك المدرس الى حقيبة الخشب ولقد اخبرته بمحتوياتها حتى يتخذ قراره . ولم يتردد . ضم الحقيبة الخشبية الى حقائبه وانطلق بها خارج المطار . ولقد قام بالفعل بتسليمها الى الرفيق (خ. ش) الذي طلبت منه تقديم الحقيبة اليه . وهكذا نمت تلك الليلة في فندق مطار القاهرة الدولي وفي الصباح تم ترحيلي بالقطار الى غزة .

حينما بلغ القطار محطة رفح الفلسطينية ، كنت احس بعجلات القطار وهي تكتب فوق القضبان منشوراً جديدا للارض .

الدفتر الثاني

وصلت الى غزة في صيف ١٩٥٣ . والمناضلون الشيوعيون الذين حوكموا ، كان من المقرر ان يحكم على بعضهم بالسجن المؤبد ، لولا الضابط المصري الوطني لطفي واكد الذي اعتبر في حيثيات الحكم ان عصبة التحرر الوطني في قطاع غزة ، منظمة وطنية وانه يحكم على مسؤولها الاول بخمس سنين وعلى بعض اعضائها بأربع سنوات وسنتين وعلى البعض الآخر ببضعة أشهر ، لأنهم لم يتقدموا بترخيص لطباعة وتوزيع النشرات — هؤلاء المناضلون الفلسطينيون كانوا جميعاً خارج أرضهم في سجون مصر . وعقوبة الفلسطيني الدائمة كانت وما تزال النفي خارج أرضه ، أن يخرج الفلسطيني من جسده .

وغزة التي لوت ذات يوم قرني « شمشون » وارغمت هذا الثور الامي الصهيوني الذي كان في عضلاته أول بذور الصهيونية ، ارغمت هذا — القوة الهمجية — الذي كان يربط قصاصات النيران في ذيول بنات آوى ويطلقها في زمن الحصاد ، لتحرق قمح أجدادنا الفلسطينيين القدامى .

غزة أرغمت هذا الشمشون على أن يفعل رغم ارادته شيئاً مفيداً ، أن

يجر طاحون المعصرة ، وان يكتب معادلة موته .

ــ السم الصهيوني ضد الزيت الفلسطيني .

وعلى كعب من الكاوتشوك ظهر الكليشيه الاول لنشرة « الشرارة » .

وبدأ الحزب نشاطه .

هم في دمي أبدا . فقد كانا كسنبلتي قمح في حقل من الجراد (س. ب) و (م. ن) . فمن يدي هاتين السنبلتين ومن يدي تألفت في غزة اول خلية شيوعية، بعد ان تحولت عصبة التحرر الوطني في فلسطين الى (الحزب الشيوعي الاردني)، بعد الحاق الضفة الغربية بالاردن . وتحول اجمل واشجع الشيوعيين الفلسطينيين الى شيوعيين اردنيين :

ــ فؤاد نصار . عبد العزيز العطي . فائق وراد . وآخرون كثيرون .

وهكذا كان علينا في قطاع غزة . المحاصر بين الماء والاسلاك الشائكة : ان نكون شيوعيين فلسطينيين في قطاع غزة .

مسالة التحول من حزب شيوعي فلسطيني (ع. ت. و). الى (ح. ش. ا) اتركها الآن وانا في زنزانة في الطابق الثاني من السجن الحربي ــ الطابق الثاني والاخير ــ .

* * *

انا الحائز على شهادة ليسانس الآداب من الجامعة الاميركية بالقاهرة ، كان علي ان انتظر شهرين لكي اقبل مدرساً للغة الانكليزية في مدرسة « البريج » الاعدادية التي تشرف عليها وكالة التعليم للاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة ، ورغم هجرة الاصابع التي تكتب الى الخارج . بدأنا نكبر كشيوعيين ، وانضم الينا عامل كان يوزع مسحوق الحليب المجفف المخلوط بالماء على اطفال المدارس في مخيم « البريج » ، وبعده انضم الينا عامل كان عليه ان يخلط الاعشاب بالتراب ويصنع القرميد الاحمر في مخيم « النصيرات » ، ورفض أن يلعب بالتراب .

فلسطيني من غزة كان اسمه (نمر هنية) ، كان يحب المطر ويكره الوحل .

لم يكن يريد ان يخترع حجراً ، ولكنه كان يريد ان يقول لهم :

ــ ان الحجر المزور اكثر خطراً من ورقة البنكنوت المزورة .

ولقد كافأته وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة بالطرد من عمله لانه رفض ان يزور التراب وان يحوله الى حجارة قرميد .

بدأت اعلم ابناء الفلسطينيين اللاجئين في مخيم « البريج » اللغة الانكليزية . ولكنني كنت أعلمهم لغة أخرى .

* * *

المؤامرة ضد الفسطيني بعد ١٩٤٨ كانت تبدأ دائماً بالمخيم ، كانت المخيمات حتى وهي خالية من السلاح ، تشكل خطرا دائماً على أولئك الذين يريدون أن يشطبوا هذه الرقبة الفلسطينية ، تلك الاصابع ، وهذا الفم .

في المخيم علق الفلاحون المطرودون من قرى الجنوب ، والذين جردهم « المواوي باشا » من اسلحتهم ، علقوا شراشرهم في سقوف الطين المزورة وانتظروا طويلا ان يعودوا الى اشجارهم واخذوا يحتالون على أنفسهم ، فزرعوا الاشجار في المخيم ، زرعوا الدالية ولكن عنقود العنب في قرية (بربرة) يختلف عن عنقود العنب في مخيم (المغازي) . والمفاتيح الخشبية والحديدية التي حملوها معهم من بيوتهم القديمة . طال الوقت عليها . لقد تحولت الى مسامير في عظامهم .

وبدأوا يتكلمون . بدأ صوت الشرشرة ، وصوت المفتاح الخشبي ، وصوت عنقود العنب المزور يرتفع . لقد تم طرد شعب من ارضه . صحيح ان القرى والمدن تحولت الى مخيمات ، ولكن اللاجئين قد تجمعوا . ولقد حاولت وكالة الغوث ابادتهم بالماء . ولكنهم في الشتاء عرفوا كيف يحولون اجسادهم الى سفن صغيرة .

كانوا يعرفون دائما ان اعداءهم ضد الاصابع الفلسطينية : الاصابع التي تضغط على الزناد أو الاصابع التي تضغط على اصابع الطباشير .

وارسلوا اولادهم لكي يتعلموا في العراء ، وارتفع صوت اليد الفلسطينية التي تعلم . تحولت الصحارة الى لوح . وبقطعة من الكلس كان المدرسون يكتبون على تلك الالواح التي صبغوها بأيديهم . وبدأوا يعلمون الاطفال . وبدأ الامل يدب . فحينما كان الطفل الفلسطيني في مخيم — البريج ، النصيرات ، المغازي ، الرمال ، جباليا ، رفح وخانيونس ، دير البلح وبيت حانون — ، حينما كان الطفل يمسك بالقلم ويظهر صوته فوق الورقة . كان الاب يحس أن لحمة قد بدأ يخضر وان يده ستحمل السلاح ذات يوم . الابن يضغط على القلم والاب اصبح يحلم بالضغط على الزناد .

آخر الشهر كانت مكافاة المدرس : حزمة من البصل ولفة من السمك المقدد . روغم ذلك فقد واصل المدرسون في المخيمات الكتابة بالكلس . ولم يتركوا اصابع الاطفال الفلسطينيين قصاصات من الاوراق في الهواء .

من قطعة الكلس ، ومن الواح الخشب الرديئة ومن الدفاتر الرديئة ومن الحليب المخلوط بالماء ظهر المدرسون الفلسطينيون الذين مضوا يعلمون بالقلم في شرق وغرب وشمال وجنوب الارض العربية . لم يموتوا ولكنهم تحولوا الى تلاميذ . وعند العصر وحين كان يعود التلاميذ بكتبهم ودفاترهم ، كانوا يعلنون انتصارهم على الجراد الابيض الآتي في الصناديق الاميركية .

وكان على المؤامرة ان تأخذ وجهاً جديداً ، وبدأت الصحف المصرية تكتب عن المخيمات ، عن مستشفى السل في البريج ، عن هذه العصافير الفلسطينية التي تشبه رقابها الخيوط . لقد بدأ التحضير لتنفيذ المؤامرة . وهنا بدأ عصر الغارات الاسرائيلية على المخيمات، في الوقت الذي اكتشف فيه قباطنة وكالة غوث اللاجئين جزيرة وسط رمال سيناء تصلح لتوطين واسكان اللاجئين في قطاع غزة .

وهكذا بدأت اول غارة اسرائيلية على مخيم البريج . كان لا بد من تفكيك المخيمات وترحيلها الى سيناء . حينما توقف بنا الباص في ذلك الصباح أمام بوابة مدرسة البريج الاعدادية للاجئين كانت الغارة الاسرائيلية قد تم تنفيذها : ٢٦ قتيلا وعشرات الجرحى والبيوت التي تم نسفها . ومــن بوابة مدرسة البريج اندفعنا الى مخيم النصيرات ، وجردنا جنود المباحث من اسلحتهم ، كانوا يكتبون التقارير باقلامهم ضد المخيمات في حماية بنادقهم .

وحينما رات الفلاحات فيمخيم النصيرات البنادق في ايدينا، انطلقت الزغاريد .

الفلاحة الخرساء ، جعلتها البندقية تنطق حينما راتها في يد ولدها . في اليوم الثاني ظهر جاويش المباحث (العكاوي) وقد ربط وجهه ، اصابه حجر احد الاطفال فوق انفه تماما ، هذا الانف الذي كان يكره دائما رائحة الوجه الفلسطيني . ظهر في مخيم النصيرات وكنا في سجن غزة المركزي . كانت المرة الاولى التي ادخل فيها السجن . وهكذا جمعتني الزنزانة مع طلابي بعد أن جمعتني بهم حجرة الدراسة ولمدة شهرين من مدرسة البريج الاعدادية .

ـــ التهب دمهم فتظاهروا .

هكذا كان يقول بعض المعتدلين .

ـــ معركتنا ليست من اجل المخيمات ولكن من اجل القرآن .

كانوا ضد القرآن وضد ـــ فتحي البلعاوي ـــ ايضاً .

ـــ اطلقوا سراحهم ولكن ابعدوهم عن المدارس .

وهكذا وجدت نفسي مطرودا من مدرسة البريج . ولكن الحزب كان قد اخذ يمشي في المخيمات .

الشيخ « عز الدين » كان اخا مسلما اشعلته التظاهرة ، جمع طلاب الفصل الابتدائي وقادهم من شط النصيرات الى شط غزة .

واعتقلوا الشيخ « عز الدين » وتركوا التلاميذ ، لم يتعلموا في ذلك الوقت كيف يعتقلون الطفل الفلسطيني في السابعة أو الثامنة من عمره .

غير ان الاطفال الفلسطينيين الذين علمهم الحزب كيف يقطعون المسافة بين شط النصيرات وشط غزة ، اطفال تظاهرة البريج ، اصبحوا فيما بعد يقطعون

نهر الاردن والبنادق في ايديهم .

وهكذا بعد تظاهرة البريج وجدت نفسي كاتباً في ورشة سيارات الوكالة في غزة — الاميون — خلعوني من بين التلاميذ وزرعوني بين العمال . وهكذا بدأت علاقتي بطيور البجع .

في عربة — لوري — كنت أمضي في الخامسة والنصف صباحاً الى الورشة ، مع العمال الميكانيكيين ، وكان علينا أن نسبق موعد انطلاق الباصات ، لحمل المدرسين والمدرسات الى مدارس الوكالة .

كنت ألف الفطور في ورقة جريدة وامضي لانتظار اللوري على راس الشارع المواجه لبيتنا في منطقة الرمال بغزة . وكمن يخبىء ديكاً في صدره ، علمني العمال الميكانيكيون كيف أصحو تماماً عند الخامسة .

على كومة من الرمال ، كنا نجلس ، نفتح أوراق الجرائد ونتناول طعام الفطور ، وهكذا أصبح يجمعنا معاً رغيف واحد .

كان الميكانيكيون يحاولون أن يخففوا عني الى اقصى حد وطأة عذاب العمل في الورشة ، ولكنني افهمتهم انني سعيد بوجودي معهم .

بعضهم كان لا يفهم ، كيف أقبل بوظيفة كاتب في ورشة . وانا خريج الجامعة الاميركية والطريق مفتوحة امامي الى خارج القطاع .

في ذلك الوقت كان « سعد حمزة » حاكم غزة العسكري ، ومدير المباحث العامة أيضاً ، يذهب الى المخيمات الوسطى — البريج — النصيرات — المغازي — ويصرخ في اللاجئين :

— الافضل ان تذهبوا الى سيناء في اللوريات بدل ان تذهبوا اليها مشياً على اقدامكم ؟.

وقلت للعمال : ان ذهابي الى الخارج كذهاب اللاجئين الى سيناء .

واخذ العمال يصغون الي أكثر . أحدهم كان ميكانيكياً بارعاً ، ولكنه لا يعرف الا اللغة العربية . فطلبت منه ان اعلمه اللغة الانكليزية ، فوافق بفرح . وانضم اليه عاملان ، وهكذا تحولت الورشة الى حجرة دراسة .

اعطيت لأحدهم نشرة « الشرارة » كنا لا نزال نطبع الكليشيه بواسطة كعب الكاوتشوك ، ولا نزال نكتب بقلم الكوبية . وكنا ما زلنا نستخدم الكربون ، في اليوم التالي ارجع لي « النشرة » — كنا دائماً نسترجعها — حتى لا تتسرب نسخة الى البوليس .

مد يده بها وقال :

— هل الى هذه الدرجة تحبون العمال ، وانا اقراها احسست بالخوف ،

فكيف الذي يكتبها ويوزعها ؟ ..

اجل ايها الرفيق ، لقد أصبح نصف لحمنا من الورق ، من اجل ان تقرأ ما نكتب. وكان الورق عزيزاً وصعباً . فالمكتبات كلها تحت الرقابة البوليسية، وكان المطلوب من كل صاحب مكتبة ، ان يبلغ البوليس عن اية لفة من الورق يبيعها .

وحل الرفاق المدرسون المشكلة ، فصرنا نستورد الورق والحبر والكربون واقلام الكوبية ، من مخازن مدارس الوكالة .

اربعة اشهر في الورشة ، كان يناضل فيها ــ خليل عويضة ــ المشرف على التعليم في مدارس اللاجئين ، هذا الصافي والصلب كحجر الماس ، من اجل اعادتي ثانية الى الطلاب . ونجح اخيراً ، صدر القرار بنقلي من الورشة الى مدرسة « جباليا الاعدادية » .

كانت نشرة « الشرارة » قد طارت في ذلك الوقت الى مصر ، وقدمت تظاهرة البريج ، أوراق اعتمادها الى الشيوعيين الفلسطينيين والشيوعيين العرب ، والشيوعيين المصريين وقرروا مساندتنا .

وجاء (خ. ش) من القاهرة ، وكان يحمل اجمل هدية ، يمكن أن يحملها شيوعي الى شيوعيين في مثل ظروفنا ، وكانت الهدية ، آلة رونيو بدائية . ومع ذلك فقد كانت شجرة الحزب ، التي تم بها طبع منشور الحزب التاريخي ، والذي تنبأ فيه بمذبحة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ .

واتخذنا قرار عقد اول مؤتمر للحزب ، فعصبة التحرر الوطني ، أصبح اسمها ، الحزب الشيوعي الاردني بعد الحاق الضفة الغربية بالاردن . واعضاء العصبة في الارض التي احتلتها اسرائيل اصبحوا في حزب (راكاح) ، ولم يبق غير الشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة .

واعددنا اللائحة الداخلية للحزب ، والبرنامج المرحلي ، والذي كان على راسه اسقاط مشروع سيناء ، والذي كان قد وقعه وزير الخارجية المصري : محمود فوزي ، وبالحروف الاولى ، مقابل حفنة من الدولارات .

وانعقد المؤتمر الاول في أواخر عام ١٩٥٣ ، في بيارة (خ. ش) . كنا خمسة مندوبين، وتمت الموافقة على اللائحة الداخلية، وعلى البرنامج السياسي المرحلي، وشكل المندوبون الخمسة ، لجنتهم المركزية الاولى ، وانتخبت سكرتيراً عاماً لها ، وهكذا تم التحول التاريخي من (ع. ت. و) الى (الحزب الشيوعي في قطاع غزة) . وتم الانتقال من ورق الكربون الى ورقة « الستانسل » .

ودارت آلة الرونيو . وقدمت الطاحون التي كنا نلقي فيها ورق الستانسل والحبر ، الرغيف الجديد للحزب وانضم رفيقان جديدان للحزب ، انهيا مدة الحكم

عليهما : الرفيق فايز الوحيدي ، هذا المناضل العزيز ، الذي حينما توقف القطار عند محطة رفح الفلسطينية ــ بعد الافراج عنه ــ نزل من العربة يبـ الى ذراع سجانه ؛ وسقط فوق الارض ، وراح يمسح وجهه بالتراب وهو يصيح
ــ آه ايها التراب الفلسطيني .

اما الرفيق الآخر فكان عبد الرحمن عوض الله . لقد عاد من السجن دخله طالباً صغيرا ، فعاد يحمل شهادة التوجيهية ، درس في السجن ونجح كان ابن مخيم النصيرات ، واجمل من شهادة التوجيهية التي عاد يحملها ، ك صوته الشيوعي . وفور الافراج عنه ، جاء الى الحزب ، وقدم يده وصوته ودمـ هذه شهادة . اجل فالقبطان فوق السفينة هو الذي يقوم بمراسم الزواج والسفينة تمضي الآن في البحر .

★ ★ ★

الحصار اخذ يشتد من اجل تمرير مشروع سيناء ، وكالة الغوث من جهة ومعها بعض المخاتير في بعض المخيمات ، والذين اختاروا أن يقدموا عيون الاطفا الفلسطينيين في المخيمات ، بيضات مسلوقة للمخابرات المصرية وغيرها ، والحز الشيوعي واصدقاؤه الوطنيون ، ومنهم ــ عبد الله ابو ستة ــ كان المسؤ عن اللاجئين الفلسطينيين ، اعطوه مكتباً من الخشب في مواجهة مركز البوليس لكي يظل في حالة تهديد دائم . كان علينا أن نذهب الى المخيمات ، والى الفلاح الذين تحولوا الى « متسللين » وكانوا من فلاحي غزة . كان الواحد منهم ، حين يرى الزرع ينمو في أرضه ، وراء الاسلاك الشائكة ، يمضي ويقص بأصابع الاسلاك ، ويذهب لزرعه .

حينما تتوقف الطاحون ، فهذا ليس ابداً دليلا على خيانة القمح .
ــ صهيوني دبر حالك نفدوا الثوار
معهم فوزي القاوقجي البطل المغوار .
اشرعة السفينة تطرد هذا الصوت :
ــ ما أكثر ابناء وبنات آوى ، في تاريخ الشعب الفلسطيني .

عبد القادر الحسيني ، يعود من دمشق ، في اصعب الايام عام ١٩٤٨ كل ما أعطوه له كان رصاصاً فاسداً كعيونهم تماماً ، رصاصاً فاسداً كعيونهم وقنابل فاسدة كقلوبهم ، كان معه : ــ فخري مرقة ــ جر كيس الذخيرة الفاسـ وراح عبد القادر الحسيني يصيح :
ــ لا بد أن يموت شيء معروف للناس ، لكي يعرف الشعب وجه ويد المؤامرة

كان يردد تماماً ما كان يقوله لنا فؤاد نصار ، كان ينظر الى عامل مصري مسحوق من العريشى :

ـ انهم سيدخلون « بجيوشهم » من اجل أن نتحول الى لاجئين ، تماماً مثل هذا العامل من العريش .

الفلاح من غزة ، يقص بأصابع يديه الاسلاك الشائكة ، ويذهب لزرعه ، يعود بحزمة سنابل ويسقط مثقوباً بالرصاص ، وفي صباح اليوم التالي يعلنون : عن قتل متسلل .

لم يكن كل شيء هادئاً في الميدان الغربي من غزة .

أول لقاء بالفلاحين من غزة ، كان في بيارة : الشيخ على دلول . كان مصاباً بصداع دائم ، ولكنه كان يريد ان يكون شيئاً جديداً . وعرفني من خلال تظاهرة البريج ، فأراد ان يلتقي بي . والتقيت به ، كنت مع رفيق ، كان اباه وجده لأمه وأبيه من الفلاحين في غزة (أ. م) . كان الشيخ علي دلول قد احضر شاعراً بربابته الى ديوانه في البيارة . حينما يشتد العذاب يذهبون الى الشعراء ، تماما كما نمشي الى الله حينما نركب الطائرة .

وبدأ الكلام عن مشروع سيناء ، وبالنسبة الى الفلاحين ، فالارض التي تحت أقدامهم ، الارض التي يروونها ، الارض التي يشتونها بالمحاريث ، ويلقون فيها البذور ، الارض التي يترعرع فيها الزرع ، الارض الموجودة برائحتها ، هي الارض المقنعة ، كانوا فلاحين من غزة ، ولكنهم كانوا ضد أن يذهب اي فلاح ـ خارج قدميه ـ .

ـ انه الموت بالنسبة للفلاح ، ان يمشي خارج قدميه ، وخارج يديه .

والفلاح دائماً كالديك ، يصيح بحوصلة مملوءة بالقمح ، ويصيح بحوصلة فارغة ، وما أكثر ما علموه الصياح وحوصلته فارغة .

الفلاحون كانوا ، مع كتابة مذكرة ضد مشروع سيناء ، كانوا مع المذكرة التي كتبتها ، وكانت موجهة الى الحاكم الاداري العام في قطاع غزة .

ورفع « الشاعر » ربابته وصاح :

ـ هذا لا يجوز ، لا يمكن مخاطبة أصحاب الامر بهذه اللغة .

كان يرهب الفلاحين بربابته ، بصوته ، بحركات يديه ، وفوق كل هذا فقد كان يرهبهم « بالزير سالم » . عندها صرخت :

ـ لو كان الزير سالم معنا لوقع هذه المذكرة ، ضد مشروع سيناء .

وسقطت الربابة من يد الشاعر ، كان يريد ان يظل يعيش بصوته على أمجاد الزير سالم . من يدري ، ربما كان الزير سالم ضد مشروع سيناء ؟ ووقع

الفلاحون على المذكرة، بعضهم « بصم » ، وبعضهم اخرج « الختم »، والقليل وقع .

وعدت في منتصف الليل ، تحت المطر ، وانا أحمل بصمات واختام وتوقيعات الفلاحين ، فوق اول مذكرة ترفع لمسؤول مصري ، وهو الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، ضد مشروع سيناء .

بعد ايام ، راى الفلاحون توقيعاتهم ، راوا اسمائهم واختامهم ، وفرحوا رغم تهديد المباحث والمخابرات لهم ، بشطب اسمائهم من المذكرة .

وبدأت عملية جمع الاسماء ضد مشروع سيناء ، واذا كان المخيم هو الرئة ، فالمدرسون في المخيم هم الهواء . وبدا تجميع الهواء ضد مشروع سيناء . بدا التحضير لجمع المدرسين والمدرسات في مدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين في نقابة واحدة .

الهواء والرئة ، وكان علينا ان نتنفس وبشكل علني . ورحنا نحضر لأول نقابة للمدرسين والمدرسات في قطاع غزة .

فتحي البلعاوي ، كان قد وصل الى قطاع غزة ، كان الاخوان المسلمون يراهنون عليه كحصان ذي جناحين يطير ولا يمشي ، ولكن فتحي البلعاوي حينما كان عليه أن يقرر ان يقف فوق الارض او فوق الهواء ، اختار الارض . وهكذا اصبح فتحي البلعاوي في القلب :

مثل أخي — ابن أمي وابي — كنت احبه — ولا ازال — وكنت أمسك بيده وأذهب لبيتنا واقول لأمي :

— يجب ان يتزوج فتحي البلعاوي .

كان الحزب قد اتخذ قراره أن يخوض انتخابات نقابة المعلمين ، وبصوته الخاص ، بيده الخاصة ، وعلى أرضه ، رغم اننا كنا نعلم جميعا ، ان الانتخابات ستأتي بأغلبية « فتحي البلعاوي ». ونجحت في انتخابات النقابة ، بعض المدرسين من الاخوان المسلمين اعطوني صوتهم ، كانوا يريدون صوتا ما يرتفع باسمهم ، فلقد اختاروا — فتحي البلعاوي — صوتا لهم ، لأن المطلوب في ذلك الوقت ، لم يكن الوقوف ضد معاوية بن ابي سفيان — في التاريخ — ولكن ضد مدير المباحث — في الجغرافيا — في قطاع غزة .

واخترنا مقر النقابة ، في مواجهة ادارة الحاكم لقطاع غزة . كان البيت الذي اخترناه منخفضا ، فقررنا ، صنع سارية طويلة ، نعلق فيها العلم الفلسطيني .

التنظيمات الاخرى ، لم تكن ، قد خرجت من البيضة بعد . كانت لا تزال في — دور التفريخ — . بعدها ، خرجت تلك الصيصان من البيض عام ١٩٥٦ ، لتشعل النار في مدارسنا ، ولكــي تطالب بهتاف ضد — عبد الكريم قاسم —

وضد الشيوعية . . .؟

وانعقد المؤتمر الثاني للحزب ، اصبحنا ثلاثة عشر مندوباً في المؤتمر ، وخلايا الحزب اصبحت في كل المخيمات .

والمؤتمر الثاني انعقد ، في بيارة ايضاً ، في بيارة الرفيق فايز الوحيدي .

وللمرة الثانية ، انتخبت ، سكرتيراً للجنة المركزية . وفي ذلك الوقت ايضاً ، اصبحت ناظراً لمدرسة جباليا الاعدادية .

وطني لن نهاب
الصعاب والعذاب

هكذا كان التلاميذ يقفون فوق منصة الأسمنت في ساحة مدرسة جباليا وينشدون ، أول نشيد كتبتـه لهم . « خليل لبد » ، كان يقود تلك الجوقة ، اين هو الآن . . .؟

وكان يوم افتتاح نقابة المعلمين لمدارس اللاجئين يوما مشهودا في تاريخ غزة .

ارسمي من دمي ومن اصفادي
يا أيادي خريطة لبلادي . . .

كان رجال المباحث والمخابرات يحيطون بالدم وبالخريطة ، وفي ايديهم الاصفاد حول مبنى سينما السامر في غزة ، حيث اتمنا يوم الافتتاح .

الضحايا قـد عانقتها الضحايا
والايـادي تشابكت بالايـادي
فنهوضاً الى النضـال نهوضاً
لا يعيش البركان تحت الرماد

بعدها خرج المدرسون والمدرسات في تظاهرة من بوابات سينما السامر في غزة ، وحينما راى جنود المباحث والمخابرات الدم فوق الاصابع ، سقطت الكلبشات من ايديهم ، وهربوا .

كان عصراً فلسطينياً كبيراً .

لم ترض المباحث ولا المخابرات ، على نتيجة الانتخابات لنقابة المعلمين ، ورغم أن أومباشي المباحث « موسى أبو قنيبة » كان هو المشرف على صناديق الانتخاب ، وكان يتولى عملية الفرز .

اطلق لحيته بعد ذلك ، ربما احتجاجاً على انتخابي ، أو انسجاماً مع طلب العضوية للاخوان المسلمين .

غير ان الناس في القطاع ، كرهوا هذا الاومباشي اكثر ، وبالذات بعد ان اطلق لحيته . فالفلاحون يحبون لحية الارض ، يحبون ان تطلق الارض لحيتها

او شواربها ، ولكنهم لا يحبون لحية جدي الباحث . لا يحبونه ، لا عريان ، ولا مكسواً بالشعر . فالمباحث كانوا دائماً تمل الفلاحين .

★ ★ ★

كنت احمل « نشرة الشرارة » ، الى الشيخ ـ محمد خلوصي بسيسو ـ ليرحمه الله كثيراً ، فقد علمني الكثير . فعمي احمد القاني في البحر ، وهو القاني في الحبر .

• ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

كان يصيح شيخي . كلما قدمت له نشرة الشرارة ليقرأها ، كان قاضي غزة الشرعي ، فكيف يقرأ ما يكتبه الشيوعيون .

يرفض الشرارة علناً . ولكنه حينما يأوي لغرفته ، كان يخرجها من تحت وسادته ، يقراها اكثر من مرة ويهمس في وجه صديقه : جعفر فلفل :

ـ هؤلاء الشيوعيون ، انهم يعرفون كيف يكتبون .

كانه اراد ان يكافئني ، ويقول لي :

ـ استمر .

اهداني كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم . كان مخطوطاً نادراً وصادرته المباحث ، لأنه كان كتاباً مكتوباً بخط اليد ، ولا بد أن يكون منشوراً ...؟

الكتب المطبوعة ، كانت هي الكتب الشرعية بالنسبة لهم .

كان شيخي يريد أن يقول لي :

ـ اقرأ ابن حزم ، وسوف تفرح كثيراً ، لا توجد أبداً قضية بدون عشق ، ولا ثورة بدون فرح .

لو عاش لقال لنا اكثر ، وبكيت كما لم ابك فوق راسه .

كنت امشي اليه دائماً ، وكان يقول :

ـ اجمل من السباحة في البحر ، السباحة في رذاذ المطر . تذكر هذا دائماً .

كان يقول لي هذا وهو يهزني بيديه من كتفي :

ـ أن تخترع حرفاً جديداً بعد حرف (الالف) ، فحرف (الباء) موجود ، ولكن حاول ن تتصور شيئاً ما ، لا بين الالف والباء ، ولكن بعد الحروف كلها ، حاول ان تصور وحذار أن تكتب ...؟ بعد اللغة يوجد الشاعر صورة ، وهو قبلها يكون اسماً ...

وحينما توجد آلة الرونيو ، يكون المنشور وهو قبلها كان .

★ ★ ★

بواسطة صديقة للحزب ، تمكنا من الحصول على تقرير مشروع سيناء ،

الذي كتبه خبراء الوكالة ، وكان تقريراً وقحاً ومشؤوماً ، ورغم اعتراف المهندسين في الوكالة ــ عن استحالة الحياة في تلك القطعة من جهنم ــ في سيناء ــ لقلة المياه والتكاليف الباهظة لاستصلاح الرمال ، ورغم ما كتبه الاطباء عن الامراض التي ستداهم اللاجئين ، والتي ستهدد حياتهم ، وبالذات حياة الاطفال ، حيث لا تستطيع لا عيونهم ولا رئاتهم تحمل ذلك الهواء المثقل بالغبار ، الا أن التقرير حمل موافقة الخبراء على المضي في تنفيذ المشروع ، ولكنهم اقترحوا أن تتم التجربة على عشرين الف لاجيء ، يدرس الخبراء بعدها على الطبيعة ، ارسال الدفعات الاخرى من اللاجئين . . . ؟

وصدر قرار الحزب ، بطبع التقرير وتوزيعه على كل الشخصيات الوطنية في القطاع، وفي الوقت نفسه أن يقوم المدرسون الشيوعيون واصدقاؤهم الوطنيون، بتحويل حصة التاريخ ، الى حصة فضح لتقرير مشروع سيناء .

قرر الحزب النزول الى المخيمات بمنشور جماهيري ، وكان هو المنشور الجماهيري الاول للحزب ، وبعد غياب اكثر من خمس سنوات .

وكلفت من (ل . م) بكتابة المنشور فوافقت (ل . م) عليه . وسلمته للرفيق (ا . ف) مسؤول الجهاز الفني ــ عضو اللجنة المركزية ــ لطباعته ، وكنا قد حددنا يوم توزيع المنشور وكان ذلك في منتصف فبراير ١٩٥٥ ، الساعة السابعة مساء ، وكان على رأس القرار أن يقوم اعضاء (ل . م) ، بتوزيع المنشور مع كافة الرفاق . واستثنينا فقط الرفيق فايز الوحيدي ، لعجزه عن الحركة .

في اليوم التالي جاءني الرفيق مسؤول الجهاز الفني، وأعلمني أن آلة الرونيو لا تعمل ، وقررت النزول بنفسي لفحص الجهاز ، ورغم معارضته الشديدة ، وانه لا يتحمل مسؤولية ظهوري في حارة ــ الفواخير ــ حيث كان يقيم .

في حارة الفواخير ، وتحت حوض من الاسمنت ، فوقه حنفية ، كانت آلة الرونيو ممددة ، كفلاح ينتظر يوم القيامة ، لكي يعود يحرث الارض .

★ ★ ★

المنشور يتبعه المنشور ، والآلة تعمل ، والليل يتقدم ، وكلما كان النعاس يأتي الي من رائحة الحبر ، كنت أحس بالهواء المثقل بالغبار القادم من سيناء يقتحم النافذة ، فأتذكر انه سيكون مسامير الرمل في رئات اطفالنا .

بعد منتصف الليل ، انتهيت من طباعة المنشور ، عشر ساعات وانا وراء ذلك الصندوق من الخشب . الحجرة كلها كانت مغطاة بالمنشورات ، لكي تجف ،

وبين هذه المنشورات رقدت ، لاصحو عند الفجر . في سلتين كبيرتين ، وضعت المنشورات ، واكتشفت ان بصمات أصابعي كانت على عدد كبير من المنشورات ولكن ما الذي يمكن عمله ، والصباح يتقدم ولم يطل ترددي ، ملأت السلتين وكان غطاء كل سلة من ورق التين ، من ورق تلك الشجرة صديقة الاطفال ذات الطفولة النادرة ، التي تخبىء يد الحزب الآن .

وخرجت بالسلتين من حارة الفواخير ، ولم يتصور احد من الذين راوني اعبر الحارة أن في هاتين السلتين تلك المناشير التي ستلعب بعد اسبوعين دوراً تاريخياً في حياة قطاع غزة ، وان يوماً قريباً سيجيء يعلن فيه جمال عبد الناصر أن يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، كان يوم كسر احتكار السلاح . وتم توزيع المنشور في الوقت المحدد تماماً ، من بيت حانون الى رفح الفلسطينية . رفيق وضع المنشور في صندوق بريد الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، ورفيق آخر رماه فوق حائط مدير المباحث فسقط في ساحة البيت ، ورفيق ثالث الصقه فوق حائط أمام مركز الباصات الرئيسي في غزة .

بعد توزيع المنشور ، وفي الطريق الى بيتنا ، اعترضني احد تلاميذي القدماء في مدرسة البريج ، لقد ترك المدرسة ليعمل شيئاً ما ، فأعطاه والده كل ما يملك ، بعض الجنيهات المصرية ، فاشترى صندوقاً خشبياً وبعض برطمانات الدهان وفرشاتين ، كانت الدموع تطفح من عينيه ، نكبة ما حلت بأسرته لا أذكرها الآن ، ولكنني أذكر انه كان في حاجة الى بعض النقود او يكون مرغماً على بيع صندوقه الخشبي . كيف اقول له أنني وانا ناظر مدرسة البريج الاعدادية لم اكن املك تلك الجنيهات ، وما زلنا في منتصف الشهر ...؟

وبشكل تلقائي خلعت حذائي وقدمته له ، وكان حذاء جديداً ، ارسله لي اخي من الكويت ، وكان أول مرة أمشي به ، هو هذه الليلة احتفالا بتوزيع المنشور .

ـ خذه بعه ، هذا كل ما املك . واخذه الصبي ومضى ... وعدت الى البيت بجوربين مرصعين بالوحل .

بعد اطلاق سراحي في تموز ١٩٥٧ ، جاء والد الصبي للتهنئة ومعه ديكان .

ـ الحذاء يتحول الى ديكين ...؟

في الصباح ، عقد شرطة المباحث والمخابرات اجتماعا مشتركاً ، وقد اشعل المنشور النار في عيونهم وايديهم . لم يتصوروا ابداً ان وثيقة خبراء الوكالة حول مشروع سيناء ستصل الى يد الحزب ، وانه سيترجمها ويطبعها ويوزعها في منشور .

وقاموا بحملة تفتيش مسعورة ، ولم يكتفوا بقلب كل شيء في الحجرة ،

بل قاموا في بعض البيوت ، بحفر الارض ، وفي احد البيوت خلعوا البلاط بحثا عن آلة الرونيو .

ولكن آلة الرونيو كانت هناك تحت حوض من الاسمنت مملوء بالماء . . . والحنفية فوق الحوض كانت ترشح قطرة قطرة . . . تسقط فوق حوض الاسمنت كأنها هي الاخرى كانت تطبع فوق الاسمنت منشور الماء .

في ليلة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ حدثت الغارة الاسرائيلية على محطة السكة الحديد في غزة ، لقد بدأ تنفيذ المؤامرة ، وكان صباح أول مارس صباح مئات الالوف من رفح حتى بيت حانون والتي انطلقت أيديها تصيح :

« لا توطين ولا اسكان
يا عملاء الامريكان » .

الدفتر الثالث

انهم يجلسون على الارصفة . ويتوهمون انهم يعرفون كل الذي يجري في الكابيتول . ولكن الجماهير في غزة التي كانت تمشي فوق الارصفة ، كانت تعرف الذي حدث في محطة السكة الحديد في غزة . عشرات الجنود المصريين والسودانيين تم ذبحهم بالسناكي وآخرون قتلوا تحت الانقاض . واللاجئون الذين تظاهروا في مخيم البريج ضد الغارة الاسرائيلية التي كان ضحيتها عشرات الفلسطينيين ، يتظاهرون الآن ضد الغارة الاسرائيلية على محطة السكة الحديد في غزة .

كان الاسرائيليين ارادوا أن يقولوا :

ــ ليس هناك من يحميكم من مشروع سيناء .

واخطأت الساقية الاسرائيلية الحساب فلم يمش اليها . الحليب المغشوش بالماء في حواصل أطفال اللاجئين .

★ ★ ★

من مدرسة فلسطين الثانوية الرسمية في غزة ، ومن لجان الطلاب الوطنية انطلقت التظاهرة الاولى . تجاوزت مركز البوليس العام في الرمال وانضم اليها

عض الاهالي وهي في طريقها الى شارع عمر المختار . وحينما نظر اليها كل من
سعد حمزة مدير المباحث والحاكم الاداري العام لغزة ، ومصطفى حافظ مدير
لمخابرات العامة ، أبتسم كل واحد منهما للآخر وعاد الى مكتبه وهو يقول :
— انهم مجـــرد طلاب يتظاهرون لأنهم يرفضون الاجابـــة علـــى اسئلـــة
لامتحان الصعبة .
غير ان طلاب مدرسة فلسطين والذين كانوا الشرارة الاولى للتظاهرة .
م يهربوا من اسئلة الامتحان . احد قادة التظاهرة الطلابية كان يصيح وهو يردد
لشعار الذي اطلقه الحزب :
— كتبوا مشروع سيناء بالحبر .
وسنمحو مشروع سيناء بالدم .
كنت مع مجموعة من الرفاق المدرسين والطلاب قرب مستشفى — تل
لسكن — أو المستشفـــى الانكليزي الذي اطلقوا عليـــه فيما بعد مستشفى
- تل الزهور — .
عشرات الجنود المصريين يخرجون من عربات الاسعاف فوق النقالات .
حد الرفاق بادر وحملني على كتفيه . والتف طلاب مدرسة فلسطين الثانوية حول
ذي ارتفع فوق الكتفين . سائقو السيارات الخاصة والباصات في ساحـــة
تاكسيات انضموا للتظاهرة . بعض الدكاكين اغلقت ابوابها وانضمت بزبائنها .
من الذي يقول ان الجماهير لا تحب الموسيقى ، حتى وهي تتظاهر وتواجه
ادق البوليس ؟! ويرتفع الصوت :
— لا توطين ولا اسكان يا عملاء الاميركان .
في هذا الوقت ابلغ مسؤول اللجنة الطلابية في مدرسة فلسطين الثانوية ،
سؤول اللجنة الطلابية في كلية غزة بقرار التظاهرات المفتوحة الذي اعلنه الحزب،
نفذ طلاب كلية غزة قرار الحزب وانضموا الى التظاهرة .
الرفيق (ح. ا. ش) كان قد عاد من سجن مصر منذ ثلاثة ايام وانضم الى
تظاهرة . وهكذا اخذ النهر يكبر ، فكلما مشت التظاهرة متراً ، كانت عشرات
لامتار تنضم اليها . وجاءني صوت فتحي البلعاوي كان رفيقي — حسني بلال —
ى جانبي ، وورائي كان اخي — س. ب ، م. آ. ر ، ج. ف ، خ. ل ، ع. س ،
ن. ب ، م. ن ، ا. ح ، ع. ع .
املأ كاسي برذاذ البرق واشربه نخب تلك الاسماء .
وتقدمت التظاهرة . راسها عند سينما السامر ، كتفاها في شارع عمر
لمختار ، صدرها قرب كلية غزة وقدماها في حي السجاعية .

حينما ينضم فلاح الى تظاهرة طالب فهو يعطيه المطر ، وحينما ينضم عامل الى تظاهرة الطالب والفلاح فهو يعطيهما : البرق .

للمرة الثانية خيل للمباحث والمخابرات في قطاع غزة ، انها تظاهرة عابرة . فورة دم ، بعض الاحجار تلقى في البركة ، ثم يعود الماء يأخذ شكل الاناء الذي يوضع فيه .

ولكنهم بدأوا يخافون حينما لم يأخذ الفلسطينيون في تظاهرة غزة شكل الاناء الذي وضعوا فيه ، منذ ان جاء المواوي باشا ، في منتصف ليل ١٥ أيار ١٩٤٨ ، برتبة لواء على راس الجيش المصري ليعلن فور (استيلائه) على غزة :

ــ حل التنظيمات السياسية في القطاع ، حل عصبة التحرر الوطني الفلسطيني بالاسم ــ تسليم الاسلحة . بعد غزة بثلاثة ايام اعلنت الصحافة المصرية في ذلك الوقت :

ــ خبر تحرير مدينة المجدل ، تحت ضوء القمر ...؟!

★ ★ ★

مشت التظاهرة حتى بلغت منتصف بيارة الترزي ، على بعد خمسين مترا من سينما السامر . عندها جاء لوري عسكري . وظهرت البنادق في ايدي المباحث والمخابرات ، البنادق التي لم تظهر ، حينما اغار الاسرائيليون على مخيم البريج عام ١٩٥٣ ، ولا حينما اغاروا على محطة السكة الحديد في غزة عام ١٩٥٥ . لقد ظهرت الآن لتعترض طريق تظاهرة من الطلاب والمدرسين والفلاحين والعمال .

بعض جنود المباحث والمخابرات كمن وراء اللوري العسكري . البعض الآخر كمن تحت أشجار البرتقال في بيارة الترزي .

الجماهير التي تحب البنادق في أيديها ، تكره السلاح حينما يكون في ايدي شرطة المباحث والمخابرات . ودائما كان الفرق بين البنادق في ايدي الجماهير والبنادق في أيدي البوليس ، هو الفرق بين حبة الرمان وبين الجرادة .

الفلاحون الفلسطينيون ، شأنهم شان اي فلاحين في الارض لا يشترون بوليصة تأمين من البعوض ، ولا شهادة حسن سلوك من الجراد .

حينما رأى الطلاب والمدرسون البنادق والمسدسات في ايدي البوليس ارتفع الصوت :

ــ اين كنتم يا جبناء ...؟

كان على التظاهرة أن تتقدم أو تكسر كبيضة فوق خوذة فولاذية . أصبحنا على بعد عشرين مترا من اللوري العسكري الذي يقف في منتصف الشارع ويغلق

طريق التظاهرة .

عشرة امتار بين اللوري العسكري والتظاهرة ، خمسة أمتار . عندها صدر الامر . وانطلق الرصاص دفعة واحدة من وراء اللوري ومن تحت اشجار البرتقال . البنادق التي كانت مريضة تماماً ودمها ملوث عام ١٩٤٨ ضد الاسرائيليين ، اصبحت في عنفوان شبابها ضد الفلسطينيين عام ١٩٥٥ .

يغرس اصابع كفيه في البلوفر الرمادي، يشقه نصفين ويتقدم عريان الصدر . وتتقدم التظاهرة وراءه . حينما راى الطلاب والمدرسون ذلك الذي يتقدم عريان الصدر ، فاتحاً ذراعيه للمسدسات والبنادق ، اندلعت النيران في ايديهم .

أصبح بين التظاهرة والبنادق ثلاثة امتار . ولكن العصافير في بيارة البرتقال قد تحولت الى حجارة في تلك اللحظة ، والهواء تحول الى حصى .

اخي (ا. ب) كان الى جانبي مع حسني بلال . لا ازال اتذكر جسده النحيل الذي يشبه النخلة ، لا ازال اتذكره واتذكر جسده ، كالزورق الذي خرج لتوه من الماء .

ـــ لم يبق لديهم رصاص .

ولكن جندي البوليس (ا. ا) اطلق كل رصاص بندقيته في تلك اللحظة .

وفي هذه اللحظة تماماً كانت هناك يد تدفعني ، كانت يد حسني بلال . يد الحزب . دفعتني تلك اليد لكي تنقذني وانهض ثانية . اما حسني بلال عامل النسيج في المجدل واللاجىء الى غزة ، والمقيم في حارة الفواخير فلن ينهض ابداً . لقد اعطاني حياته .

كان كل رصاص جندي البوليس (ا. ا) في راسه وصدره وفخذيه . لقد رايت النخاع الابيض يخرج مـــن عظمه . لماذا لا يقولون في مؤتمرات الكتابة الفلسطينية ان الكتاب الفلسطينيين يكتبون بالحبر الابيض .

★ ★ ★

احترق اللوري العسكري وهرب الشرطة وتقدمت التظاهرة حتى بلغت مركز بوليس الرمال . عند بوابة المركز المواجهة تماما لمقر نقابة مدرسي ومدرسات وكالة غوث اللاجئين ، اجتمع كل الشرطة السريين والعلنيين :

ـــ عضوان من مجلس بلدية غزة ، قاضي غزة الشرعي ، مختار الرمال ، عضو المجلس الاسلامي ، ناظر هذه المدرسة الرسمية او تلك ، مدير المباحث ، مدير المخابرات .

ويصرخ مدير المباحث ـــ الحاكم الاداري العام لغزة ـــ سعد حمزة :

ـــ عودوا الى مدارسكم .
ـ ويرتفع صوت التظاهرة :
ـــ لا توطين ولا اسكان
يا عملاء الاميركان .
ارى اصابعي وارى فوقها دم حسني بلال ويرتفع الصوت :
ـــ سال الدم
عاش الدم
قاضي غزة الشرعي (م. ن. أ. ش ، وبتكليف من سعد حمزة مدير المباحث يرفع صوته :
ـــ الى الجامع الى الجامع ؟؟
ولكن بيت الله لن يكون بيت سيناء .
ويرتفع صوت الذي شق قميصه :
ـــ الى السجاعية الى السجاعية الى الفلاحين .

★ ★ ★

بالنسبة للمتظاهرين كان عنق اصغر طفل فلسطيني اطول من كل منذنة . ولم يستطيعوا ابدا ان يخدعوا لا المتظاهرين ولا فتحي البلعاوي . فحينما طلبوا من فتحي البلعاوي ان يختار بين عنق الطفل الفلسطيني وبين المئذنة ، اختار هذا المناضل الفلسطيني ـــ الغفاري ـــ اختار عنق الطفل الفلسطيني ، واخذ مكانه الجليل في تظاهرة مارس ١٩٥٥ ، دفاعا عن رموش تلك العنق التي من خلالها يمكن ان نرى الله الذي هو الارض والذي تجيء بعد ذلك ثورة لتعلن :
ـــ انه الوطن .

مات حسني بلال . في بيت اخته وراء سينما السامر في غزة . كان ممددا فوق النعش . كان لا يزال هو ، ذلك الشيوعي الذي راح يوزع منشور الحزب في منتصف شباط ١٩٥٥ في حارة الفواخير .

حسني بلال عامل النسيج من المجدل حيث قد تم احتلال كل شجرة توت ، يجيء الى غزة وفي يده خيط من حرير قبل ان يموت برصاصة من يد جندي بوليس فلسطيني يريد ان يقول :
ـــ تذكروا دائما ان دودة القز التي تصنع الحرير هي شيوعية .

في صباح اليوم التالي كان علينا ان ندفن شجرة توت ، ان ندفن جسداً اصبح كله شبابيك .

فوق راسه كنت اصرخ :

ـــ يا فم حسني بلال

الدم سال وقال

والدم في صباح اليوم الثاني من تظاهرة مارس ١٩٥٥ رفع بين يديه كتفي حسني بلال . اول شهيد فلسطيني ، أول شهيد شيوعي يسقط ضد مؤامرة التوطين والاسكان .

وحينما اصبح راس حسني بلال مرفوعاً فوق أيدي رفاقه وهم يمشون به الى المقبرة اطلقت شجرة توت احدى وعشرين طلقة من خيوط الحرير ، ومشت التظاهرة الى بستان الاحجار .

فوق سطح مستشفى ـــ تل السكن ـــ حيث كان يتمدد في حجراته عشرات الجنود الجرحى أخذ شرطة المباحث والمخابرات يطلقون الرصاص على التظاهرة . وبدا الرصاص يسقط فوق النعش . كانوا يريدون ان يسقطوا النعش ويسقطوا التظاهرة .

عشرات الايدي راحت تمسك بالنعش وتجاوزت التظاهرة مستشفى ـــ تل السكن ـــ حتى بلغت المقبرة .

ان سفينة فلسطينية جديدة تنزل الى التراب . وهكذا نزل حسني بلال ، نزلت شجرة التوت المثقلة بفاكهة الحرير .

★ ★ ★

في ساحة التاكسيات قرب السكة الحديد انتخب المتظاهرون من الساحة لجنتهم الوطنية العليا لقيادة التظاهرة . كان المتظاهرون يرفعون ايديهم ويرشحون أسماء مندوبيهم للجنة ، وكانت الموافقة على اسم المندوب تتم بواسطة رفع الايدي .

من فوق عربة لوري مكشوفة وقفت اللجنة الوطنية العليا للتظاهرة وقررت عقد اجتماعها في مقر نقابة المعلمين الذي اتخذته اللجنة العليا مقراً لها طيلة أيام الانتفاضة .

في كل مخيم بدات الجماهير تؤلف لجانها الوطنية ، وكان كل مخيم قد ارسل مجموعات من ابنائه لحراسة مقر نقابة المعلمين .

امتلأت شوارع غزة من السجاعية حتى الرمال باللاجئين من كافة المخيمات . كانوا فوق كل الارصفة ، تحت كل شجرة ، في ساحات المدارس ،

تحت اعمدة الكهرباء ، وحول مقر النقابة المواجه لمركز البوليس . كانت الالوف تضرب جنزيراً وتسهر طول الليل . لم تكن اللجنة الوطنية العليا تملك مسدساً ، وكانت الجماهير تعرف هذا جيداً فعرفت كيف تقوم بالحراسة .

اللواء عبد اللــه رفعت الحاكم الاداري العــام لقطاع غزة ، هرب الى العريش . أحد الحرس الوطنيين يدخل ويعلن :

ـــ أن سعد حمزة حاكم غزة الاداري ومدير المباحث يريد أن يقابل اعضاء اللجنة الوطنية العليا .

فلينتظر .

وانتظر سعد حمزة ساعة كاملة حتى سمح له بالدخول وبعد أن اتخذت اللجنة العليا قرارها السياسي . كان سعد حمزة يريد أن نغادر مقر النقابة ، وفي الصباح نذهب لمدارسنا وينتهي كل شيء ؟؟

ـــ ولماذا قتلتم حسني بلال ؟

ـــ انكم مخطئون تماماً فحينما تجعلون الموت شيئاً فلسطينيا عادياً ، تصبح الحياة صعبة تماماً بالنسبة لكم . ورحت أملي عليه مع فتحي البلعاوي قرارات اللجنة الوطنية العليا :

ـــ أن تعلن كافة أجهزة الاعلام الرسمية الغاء مشروع سيناء .

ـــ تدريب وتسليح المخيمات الفلسطينية حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها في مواجهة الغارات الاسرائيلية .

ـــ محاكمة المسؤول عن قتل الرفيق حسني بلال والمسؤولين عـــن اطلاق الرصاص على المتظاهرين من فوق سطوح مستشفى ـــ تل السكن ـــ .

ـــ اطلاق الحريات العامة وعلى راسها حرية النشر والاجتماع والاضراب .

ـــ عدم المساس بحرية الذين تظاهروا في اليوم الاول والثاني والثالث مـــن ١٩٥٥ . هؤلاء الذين يجسدون قلب وروح الشعب والوطن .

وحمل سعد حمزة قرارات اللجنة الوطنية العليا ومضى .

★ ★ ★

منع التجول كان قد فرض على قطاع غزة كله من رفح الفلسطينية حتى بيت حانون . ولكن الجماهير كانت قد ملأت الشوارع وفرضت حظر التجول على شرطة المباحث والمخابرات ، وفي كل غزة لم تكن تتجول غير عربة جيب واحدة اهداها أحد الاصدقاء للجنة الوطنية العليا ، وكنا نتجول في عربة الجيب التي يرفرف فوق مقدمتها قميص حسني بلال المصبوغ بدمه ، والذي اصبح

علم الانتفاضة .

ــ سعد حمزة مدير المباحث جعلوه ينتظر ساعة ونصف قبل ان يسمحوا له بالدخول ؟

ــ لقد هرب اللواء عبد الله رفعت الحاكم الاداري العام لقطاع غزة الى العريش ؟ ــ هكذا كان اللاجئون يتكلمون .

مصطفى حافظ قائد المخابرات الحربية لقطاع غزة يصرخ في وجه احد معاونيه :

ــ قلت لي انهم عشرون شيوعيا ، هل تستطيع ان تحصيهم الآن ؟

وكنا أكثر من عشرين شيوعياً ، ولكن النجمة الواحدة بملايين عيدان الكبريت المشتعلة .

وجاء سعد حمزة للمرة الثانية الى مقر النقابة ليبلغنا انه مفوض من قبل الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ــ اللواء عبد الله رفعت ــ لمناقشتنا في صيغة البيان الذي ستصدره ادارة الحاكم العام ، ومناقشة قرارات اللجنة الوطنية العليا .

في مكتب سعد حمزة ، كان قد اقترح وأصر على الاجتماع وصرخ لكي يؤكد ما يقول :

ــ انها مهابة الحكومة .

وقررت مع فتحي البلعاوي الذهاب الى مكتب سعد حمزة ومعنا بعض اعضاء اللجنة الوطنية العليا ولمدة ساعة واحدة ، من الساعة الحادية عشرة ظهراً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً وان يعلن هذا للمتظاهرين لكي يكونوا على استعداد لاقتحام مركز البوليس اذا لم نخرج في الوقت المحدد .

وبالفعل ذهبنا الى مكتب سعد حمزة ، وكانت الجماهير تحيط بمركز البوليس من كافة الجوانب .

وبدا سعد حمزة يتكلم عن هيبة الحكومة ، وعن الحرائق التي اشتعلت في بعض السيارات والاكشاك ــ احرقها عملاء المباحث ما عدا اللوري العسكري ــ وشارع عمر المختار الذي كان شارع التظاهرات ، لم يرتفع في وجهه عود كبريت واحد .

في الساعة الثانية عشرة تماماً بدا هدير المتظاهرين وبدا صدى الصوت يضرب الاسمنت ويشقه ليصل الينا ونحن في مكتب حاكم غزة الاداري ــ مدير المباحث .

ــ ما هذا ؟

— انهم المتظاهرون .

ونخرج من مكتبه الى بوابة مركز البوليس لكي يحملنا المتظاهرون فوق الاكتاف حتى مقر النقابة .

عند العصر يأتي سعد حمزة ومعه مسودة البيان الذي سيعلن على اهالي قطاع غزة .

وكانت المسودة تتضمن :

— أصبح مشروع سيناء غير ذي موضوع .

— موضوع تسليح المخيمات وفرض قانون التجنيد الاجباري لحمل السلاح بالنسبة لكافة المواطنين في وقت قريب .

— يقسم الحاكم الاداري العام لقطاع غزة بشرفه العسكري ان لا يحجز أو يعتقل كل من تظاهر سلمياً وبالذات بالنسبة الى اعضاء اللجنة الوطنية العليا .

— أن تعمل ادارة الحاكم الاداري العام على ضمان حريات سكان القطاع .

★ ★ ★

في اليوم الثالث من التظاهرات في قطاع غزة محاصر من الاسلاك الشائكة للاحتلال الاسرائيلي ومن البحر . في اليوم الثالث حيث توقف كل شيء ، وكان الاضراب عاماً ، لا مدرسة ولا فرن ، ومن العريش بدات تتدفق قوات عسكرية لتعزيز مواقع الشرطة والمخابرات في غزة . امتنعت القوة السودانية في قطاع غزة منذ اللحظة الاولى عن اطلاق الرصاص على المتظاهرين .

خليل عويضة المشرف العام على مدارس اللاجئين تحول قلبه الى صوت يقول لنا :

— اقبلوا فقط ببيان مكتوب تعلنه ادارة الحاكم الاداري العام بمكبرات صوت ، لم يعد امامكم وقت طويل . فحشود عسكرية من العريش قد وصلت الى مشارف غزة .

(المستقلون الوطنيون ؟) و (المثقفون جداً ؟) يريدون ان يقبلوا باي شيء لكي يغسلوا ايديهم نهائياً من غبار اصوات الجماهير .

واتخذنا قرارنا مع البيان المكتوب ، ووافق سعد حمزة على أن يقوم بطبع البيان واعلانه بالوسائل الرسمية على أن تقوم اللجنة الوطنية العليا بتوزيع البيان واعلانه بوسائلها الخاصة .

كان الشيء الوحيد الذي يتحرك بالنسبة للجنة الوطنية العليا ، هو عربة

الجيب وفي مقدمتهم يرفرف قميص حسني بلال المصبوغ بدمه .

في الصباح تم تبليغ بيان ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة للجماهير . احد السائقين قدم لنا سيارته فانطلقت بها مع الرفيق (س. ب) ـــ سلام عليه ـــ الى مخيم جباليا .

فوق حائـــط وقفت واعلنت باسم اللجنـــــة الوطنيـــة العليا ، سقوط مشروع سيناء .

ـــ سال الدم .

عاش الدم .

هكذا كان صوت مخيم جباليا . كانت كل رؤوس اللاجئين في المخيم تريد أن تدخل دفعة واحدة في شباك السيارة وتصيح :

ـــ لقد انتصرنا ، وسقط مشروع سيناء .

★ ★ ★

بعد سبع سنوات من طحن الملح بالكوع ، ومن مضغ هواء الاذاعات العربية بأصابع اليدين ، بعد سبع سنوات من لف راس الوطن بورق الجرائد التي تكذب ستين دقيقة في الثانية ، يحس الذين لم يكتبوا ولم يقراوا طول حياتهم من سكان المخيمات انهم هم الذين كتبوا وقراوا بيان سقوط مشروع سيناء .

الحاكم الاداري العام لقطاع غزة عاد من العريش يسبقه بيان الغاء مشروع سيناء ، وصوت القسم بالشرف العسكري الا يعتقل احدا من المتظاهرين الذين قادوا التظاهرة ؟

وبدات محطات المباحث والمخابرات ، تملا حناجر عملائها ومخبريها بالبنزين، لكي يبداوا سيرهم في المخيمات ، التي طردوا منها طيلة ايام الانتفاضة ، حيث فرضت اللجنة الوطنية العليا ، قرار حظر التجول بالنسبة لهم .

وهكذا في اليوم الخامس من الانتفاضة من مارس ١٩٥٥ ، بدا المخبرون يظهرون في غزة وفي المخيمات . في غزة بعض الناس حينما راوا شرطة المباحث والمخابرات : رسموا اشارة الصليب على صدورهم ، والبعض الآخر راح يتمتم :

ـــ اعوذ بالله . . .

كان يوم ظهورهم ، يوم نحس من ايام مارس ، وبالذات في الوقت الذي كانت تعلن فيه اذاعة اسرائيل وفي كل نشراتها باللغة العربية ، ان البوليس يجد الآن في قطاع غزة ، في مطاردة واعتقال ، قيادة التظاهرات . . .؟

وبالفعل ، فقد بدا مكتب المباحث في غزة ، يتبادل قوائم « المشبوهين » مع

مكتب المخابرات بالاضافة الى قوائم جديدة .

وبدأت التقارير ترد الى الحزب ، عن حملة اعتقال سريعة قادمة ، وان القائمة في دور الترتيب النهائي .

حينما سألتني امي عن صحة تلك الانباء ، عن حملة الاعتقال المقبلة ، رغم القسم بالشرف العسكري الذي قدمه الحاكم الاداري العام لقطاع غزة :

ـــ اللواء عبد الله رفعت ـــ .

ابتسمت ، ففهمت كل شيء .

وحينما سألتني عن الاجراءات التي سوف نتخذها لحماية انفسنا قلت لها :

ـــ انهم يريدون منا ان نهرب الى الخليل عبر الارض المحتلة ، لقد اعدوا لنا الكمائن على الحدود ، وهم في انتظارنا . ولكننا لن نسقط في المصيدة ، لكي نقدم للمحاكمة العسكرية كمتسللين ، يريدون الاتصال بالعدو . . .

واصدر الحزب قراره بالتحذير من (كمائن الحدود) و (من عملاء المباحث والمخابرات الذين تحولوا الى متطوعين ، لتهريب الشيوعيين عبر الحدود الى الخليل) .

ابي حينما كانت المناقشة تشتعل بينه وبين امي كان يصيح :

ـــ انه لواء في الجيش ، واقسم بشرفه العسكري . . .؟

ولكن امي كانت تعرف جيداً هذا الشرف العسكري .

الدَفتر الـرّابع

الى جوار بيتنا في الرمال . صحونا ذات يوم ، وكانت عائلة قد لجأت الى شجرة توت . كانوا جيراناً بيتهم شجرة . واقمت لهم بيتاً من البطاطين . اكتفت امي بلحاف واحد لنا وقدمت كل البطاطين وبعض الطناجر والصحون ، وقسمت بيديها كل ما كنا نملك من التموين بيننا وبين تلك العائلة المهاجرة — عائلة ابونحل — كانت عائلة ابو نحل تتألف من أخوين متزوجين وأولادهما .

واصبحنا عائلة واحدة ، وقبيل انتفاضة مارس بأيام ، كان — ابو نحل — قد كلف بمراقبتي . فلقد اصبح شرطياً في المباحث . . . ؟

اريد ان اقول . انه حينما يتحول أحدهم الى شرطي مباحث او مخابرات ، فهو على استعداد . لكي يحلب ثدي امه . ويقدم حليبه كأس عرق .

وكل ما توقعته أمي قد حدث . فالشرف العسكري للمباحث والمخابرات ، قد اخذ شكله النهائي ، في منتصف ليل ٨ — ٩ مارس ١٩٥٥ ، حينما بدأت الغارة البوليسية من رفح حتى بيت حانون . على بيوت الشيوعيين والوطنيين وحتى المستقلين في قطاع غزة . على بيوت المسلمين الوطنيين وعلى بيوت الشيوعيين

معاً ، وعلى راس القوة البوليسية التي هاجمت بيتنا في منتصف ليل ٨ ــ ٩ مارس ١٩٥٥ كان اومباشي المباحث : ابو نحل .

☆ ☆ ★

فوجىء ابي ، بالغارة البوليسية ، فطلب من ــ آمنة ــ كانت في بيت جدي لابي ، وجاءت الى بيت ابي ، وهي التي ربتني وربت اخوتي ، وكانت من جباليا . طلب ابي منها ان تقدم القهوة (لابو نحل ــ ابو قنيبة) ، وبقية افراد عائلتهما من شرطة المباحث . ولا ازال اذكر ــ آمنة ــ وفوق يدها صينية القهوة وهي تدخل الى حجرتي وقد احتلتها شرطة المباحث وكان معي أخوتي : (س. ب ، ص. ب ، ا. ب) . وجاءت امي وضربت الصينية بيدها ، فتطايرت الفناجين فوق رؤوس شرطة المباحث وهي تصرخ :

ــ لن اقدم القهوة في بيتي للذين جاؤوا لكي يعتقلوا اولادي ، ونظرت امي الى ــ ابو نحل ــ ، شرطي المباحث ، الذي كان يريد ان يختبىء من عينيها وراء اي شيء وصاحت :

ــ جئت تعتقله . . . لماذا ؟؟ لقد كان يدافع عن اطفالك . . . لم يبق الا ان يسلخ جلده ويقدمه لك لحافاً .

كنت انظر الى ــ ابو نحل ــ ، ولكنه كان يريد ان يخبىء عينيه ، فنظر الى تدميه دون ان يدري . دائما المباحث ، ينظرون الى اقدامهم الكبيرة ، الاقدام التي كبرت من فرط متابعة وملاحقة الايدي التي تكتب .

★ ★ ★

انا واخوتي الثلاث طلبوا منا ، الذهاب الى مركز البوليس ، لكي نجيب على بعض الاسئلة ونعود . . .؟ كنت اعرف : انه تم الاعتقال ، ولكن لم اكن اصدق ، انهم سوف يقومون باعتقال اسرة باكملها . ان يعتقلوا اربعة ابناء لاب وام ــ ولكنهم اعتقلوا جميعاً .

جندي سوداني كان يقود عربة الجيب العسكرية ، حينما صعدت وقلت له ، ولا ادري لماذا :

ــ نحن اربعة اخوة . .

كان يعرف ، ولا ادري كيف . فقط وضع وجهه بين كفيه ثم مضى وهو يكتم شيئاً في عينيه .



في اسطبل الخيول ـ ايام الانتداب البريطاني ـ الذي حولته المخابرات الى زنازين ، وحجرات تعذيب في سرايا الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، القوا بي وباخوتي الثلاثة في وسط طابور من المعتقلين .

أولا جاء مصطفى حافظ مدير المخابرات ليتفرج علينا وراء القضبان ، وبعده جاء سعد حمزة مدير المباحث وبعدهما جاء آخرون . . . كانوا يريدون ان يتفرجوا على اولئك الفلسطينيين الذين كانت لهم جمهوريتهم الفلسطينية ولمدة سبعة أيام .؟

★ ★ ★

ـــ اربعة أولاد من عائلة واحدة . . .؟

ـــ لنترك واحداً منهم . . . ولنعتقل الثلاثة . . .

لم يستخدموا القرعة ، ولكنهم قبيل الفجر أطلقوا سراح أخي (ص. ب) . ولم يكن يريد ان يخرج ويتركنا ولكنهم جروه الى الخارج ، فمضى وهو يجهش .

★ ★ ★

في لوريات مغطاة تماماً . والحرس كانوا من الجنود السودانيين . مضينا من سجن غزة المركزي الى محطة العريش .

محمد يوسف النجار ، كان في عربة لوري ، فتحي البلعاوي ، كان في عربة ثانية ، وفي عربة ثالثة كنت مع بعض الرفاق من المدرسين والطلاب والعمال الزراعيين .

★ ★ ★

ـــ الجماهير . . . الجماهير . . .؟

الرفيق (ح. ا. ش) كان يطل برأسه من تحت غطاء اللوري . . . وما اكثر ما كان ، يتصور ان اعمدة الكهرباء والتلفون هي مجموعات من الناس . . .

وكان يهتف :

ـــ عاش كفاح الشعب الفلسطيني .

وكنا نهتف معه ، حتى وصلنا محطة العريش .

كان الرفيق (ح. ا. ش) يحسدني ، لأن معي اخوتي : (س. ب ، ا. ب) وكان يدمدم :

ـــ لو كان اخي شعبان معي ، لتعلم خبرة كفاحية . . .؟

ووصلنا محطة العريش . طول الطريق كان الجنود السودانيون يشعلون السجائر ويقدمونها لنا ، كان هناك قطار في انتظارنا ، وفي عربة نقل خيول تم شحننا ومضى القطار بنا . . .

... دفعونا والكلبشات في ايدينا ...
ومن صرير عجلات القطار فوق السكة الحديد ... ومن خشخشات الكلبشات في ايدينا ، من الليل الذي كان يسقط حولنا ، كأنه الحجارة ... رحت اصيح :

هناك ... هناك ... بعيداً بعيد ...
سيحملني يا رفيقي ... الجنود ...

المعتقلون في عربة اللوري ، راحوا يرددون ورائي مقطعاً ... بعد مقطع ، اول نشيد كتبته والكلبشات في يدي .
ويمضي الصوت :

سيلقون بي في الظلام الرهيب
سيلقون بي في جحيم القيود
لقد فتشوا غرفتي يا أخي
فما وجدوا غير بعض الكتب
واكوام عظم همو ... اخوتي
يئنون ما بين ام ... واب
لقد ايقظوهم ... بركلاتهم
لقد اشعلوا في العيون الغضب

●

انا الآن بين جنود الطغاة
انا الآن اسحب للمعتقل
وما زال وجه ابي ماثلا
امامي ... يسلحني بالامل
وامي ... وامي ... انين طويل
ومن حولها اخوتي يصرخون
ومن حولهم ... بعض جيراننا
وكل له ... ولد في السجون
ولكنني رغم بطش الجنود
رفعت يداً اثقلتها القيود
وصحت بهم : انني عائد
بجيش الرفاق ... بجيش الرعود

●

هناك ارى عاملا في الطريق
ارى قائد الثورة المنتصر
يلوح لي بيد من حديد
واخرى تطاير منها الشرر

●

انا الآن بين مئات الرفاق
اشد لقبضاتهم ... قبضتي
انا الآن اشعر اني قوي
واني سأهزم ... زنزانتي

●

نعم لن نموت ، نعم سوف نحيا
ولو اكل القيد من عظمنا
ولو مزقتنا سياط الطغاة
ولو اشعلوا النار في جسمنا
نعم لن نموت ، ولكننا
سنقتلع الموت من ارضنا

●

— احس بالفرح الآن وقد عرفت ان هـذه القصيدة التي كتبتها في فجر ٩ مارس ١٩٥٥ في لوري عسكري ، والكلبشات في يدي ، هي الآن نشيد الزنازين في سجون الارض المحتلة — .

★ ★ ★

ووصلنا محطة مصر .

كانت محطة مغلقة ، ولم يكن على الارصفة غير الشرطة .

ومن محطة سكة حديد القاهرة ، تم شحننا في لوريات مغطاة الى مكان عرفنا فيما بعد انه سجن مصر العمومي .

أمام البوابة الخشبية لسجن مصر العمومي توقفت العربات العسكرية ، وبدأنا ننزل الواحد بعد الآخر . أوقفونا في ظابور . ثم صدر الامر الينا بالعبور من خلال تلك النافذة الخشبية .

كان ورائي الرفيق (ح. ا. ش) ووراء البوابة الخشبية ، كان صفان من بوليس السجن في استقبالنا بالعصي .

وحين انهالت العصي فوق رأسي صاح الرفيق (ح. ا. ش) محتجاً :

ـــ انه الرفيق القائد .

وعرفوا انني الكبش . راس هذا الطابور من المعتقلين الفلسطينيين .

واغمي علي من هول الضرب وصحوت ، فاذا براسي بين يدي ، ممنوع عليك ان تلتفت الى اليمين او الى اليسار . الى الامام او الى الخلف .

كان على الراس الفلسطيني ان يدخل ثقب الابرة .

تحس كأن محراثاً يدور في راسك . ماكينة الحلاقة تدور . ويسقط شعرك هذا الصوف الفلسطيني المطلوب دائماً .

سبعة سبعة كنا نمضي محلوقي الرؤوس ، بثياب السجن الى الزنزانة التي اعدوها لنا . وفي حجرة طولها متران، وعرضها ثلاثة أمتار ، دفعوا سبعة معتقلين كنت بينهم الى زنزانة في العنبر الاول في سجن مصر العمومي .

فوق اسفلت الزنزانة تكومنا ، راس كل واحد منا فوق راس الآخر .

كنت اريد ان انام .

سبعة ايام وانت تريد ان تعلن ان الليل ليس هو العدو .

الآن كل الذي تطلبه ، ساعة نوم واحدة . لقد اقفلوا باب السجن . وفي الخامسة صباحاً سيعودون . في ذلك اليوم تماماً من صباح العاشر من مارس ١٩٥٥ ، تجمع الطلاب في ساحة مدرسة جباليا الاعدادية ورفضوا أن يذهبوا الى حجرات الدراسة :

ـــ لا تعليم بدون معين .

ثلاثة ايام تمر والطلاب في مدرسة جباليا الاعدادية يتظاهرون . كانوا ككرسي يقاتل طاحونة ، كعصفور يقاتل ضد الف حائط ، كأطفال يحتفلون بعيد ميلادهم تحت عامود كهرباء .

★ ★ ★

بعد الفجر بقليل ، ايقظني جاويش العنبر ـــ حسن مشرف ـــ وهو يصيح :

ـــ استيقظوا ايها الجواسيس .

قالوا للسجانين اننا مجموعة من الجواسيس المحكوم عليهم بالاعدام ، ولهذا ضربنا كما لم يضرب سجين من قبل في سجن مصر العمومي . فما دمنا سنموت فقضية التعذيب تصبح سؤالا خاصاً لمترين من التراب ويرتفع الصوت :

ـــ عاش كفاح الشعب الفلسطيني .

كان هو الصوت الصعب ، وكان الجواب عليه :

ـــ اضرب فوق الظهر الفلسطيني الحنين .

وكان صوت اللواء ـــ اسماعيل همت ـــ .

الدفتر الخامس

اسماعيل شموط كان يحمل صينية الكعك ودفاتره المدرسية ويمضي يبيع السكر لأطفال اللاجئين في مخيم خان يونس . فلسطيني يبيع السكر . فلسطيني في ايام البحر الميت يبيع السكر للبحر الابيض المتوسط .

في اكاديمية روما للفنون الجميلة كان اسماعيل شموط يرسم نار الشتاء الفلسطيني للشجر القادم من اضلاع — سبارتاكوس — .

آه . . .

يد معتقل فلسطيني في الزنزانة تصطدم بظهر رفيقه المسلوخ .

لماذا يسقط — هو أرد فاست — ويكتب — الهي العاري — ؟

في مسجد — الست رقية — في السجاعية كنت اقفز فوق ظهر المصلين .

امام المسجد كان يقول :

— هاتوه لأنفخ في أذنه أو فمه وبعد ذلك لن يقفز فوق ظهور المصلين .

لعاب كل الآلهة كان في فمي . دائماً كنت اظن أن اذني شجرة تين ، وفمي دالية ورفضت .

تحس انك تسقط الى قاع بئر . الفلسطيني يقتل وهو نائم . ولكن الحلم كان دائماً يقول للفلسطيني :

ـ سوف تصحو .

يد محمد يوسف النجار التي لم يكن يستطيع استخدامها كانوا يضربونه فوق اصابعها .

كمناقير الطيور تدخل في حواصلها ، كانت أصابع يد محمد يوسف النجار تدخل في حواصلنا جميعاً . كنت امضي مع عبد الرحمن الشرقاوي لنراقب مجلة الكاتب ـ صوت حركة انصار السلام المصرية ـ في اعقاب ثورة ٢٣ تموز . كان الرقيب العام اسمه : انور السادات . وكنا نخرج ومجلة الكاتب منديلا من الكرتون الابيض فوقه بقع من الحبر . المساحات البيضاء في الجرائد اغنية قديمة .

تسقط اكثر في البئر . ترتطم بسطح الماء . تصحو .

ماذا قد فعلوا بالوجه الفلسطيني؟ لقد حلقوا شعر الراس وحلقوا الحاجبين . وعريان أمام رفاقك كانوا يحلقون ذلك العشب الآخر .

ماكينة الحلاقة التي دارت في الراس الفلسطيني ، كانت تدور كالمحراث في الارض الفلسطينية المحتلة . لم أكد اعرف اولئك المكومين معي في الزنزانة ، ولكن حينما استيقظنا في السادسة صباحاً على مفتاح وكرباج السجان ، عرفنا أننا لا يمكن ان نكون غير فلسطينيين .

فلسطيني يصحو ويوقظ كل الفلسطينيين في الزنزانة .

★ ★ ★

العنبر يضم الشيوعيين المصريين والاخوان المسلمين . اسكنوا المعتقلين الشيوعيين الدور الثاني والاخوان المسلمين سكنوا في الدور الثالث والرابع ، ربما ليكونوا اقرب الى الله . اما نحن المعتقلين الفلسطينيين فلقد سكنا في الدور الارضي لنكون اقرب الى الكرابيج .

من خلال الرفاق المصريين عرفت ـ رابطة الطلاب الفلسطينيين في مصر ـ بوجودنا في سجن مصر العمومي . وهكذا وصلت الاخبار الى عائلات المعتقلين في قطاع غزة ، حيث لم يكن احد يعرف اسم السجن الذي أسكنونا فيه .

امتنعت شرطة المباحث والمخابرات تماماً عن تزويد عائلاتنا بأية معلومات عنا .

سقطت هراوة على فم احد المعتقلين فتحطمت اسنانه .

يبتسم ضابط العنبر ويصيح :

ـــ وما حاجتك الى أسنانك ، انت ذاهب للموت .

اللواء اسماعيل همت قبل وصولنا الى السجن جمع الضباط والسجانين وقال لهم ـــ انهم طابور من الجواسيس سوف ينفذ فيهم حكم الاعدام .

بالكرابيج المجدولة من أسلاك التليفون كانوا يضربوننا . الفلسطيني الذي بلا تليفون ، يضربونه بأسلاك التليفونات .

منعوا عنا كل شيء : الاتصال بالمعتقلين الآخرين ، كتابة الرسائل والفسحة اليومية في ساحة السجن وهي عبارة عن نصف ساعة مشي في الصباح ، ونصف ساعة اخرى عند العصر . من خلال خروج طوابير الشيوعيين والاخوان المسلمين للفسحة ، كانوا يلقون لنا بعلب السجائر ويلوحون بأيديهم مشجعين . أن تلوح لك يد في هذا الجحيم ، كمن يهز نخلة بين يديك .

سيد قطب يتوقف أمام باب زنزانتي . طلبت منــه أن يرسل لنا بعض السجائر فكان جوابه :

ـــ اقراوا القرآن .

كانت القراءة ممنوعة علينا ، لم يكــن مسموحاً للفلسطيني غير تدخين اصابعه . ولكن فتحي البلعاوي كان لا يدخن وكان يرسل السجائر التي تصله لي ولمحمد يوسف النجار .

شكلنا لجنـــة لقيادة النضال اليومي في السجن وكانت مؤلفة مني ومــن فتحي البلعاوي . في كل زنزانة كان هناك مسؤول حزبي على الرفاق ، الكرباج كالثعبان اذا لم تقاومه ابتلعك .

واخذنا قرار المقاومة .

الجاويش حسن المشرف يفتح باب الزنزانة وهو يصرخ :

ـــ الى دورة المياه ايها الجواسيس .

ورفضنا مغادرة الزنزانة وارتفع صوت أحد الرفاق :

عاش كفاح الشعب الفلسطيني .

فوجيء السجان بالهتاف . بعض الرفاق راحوا يدقون باغطية جرادل البول على جدران الزنازين . استمر ـــ كفاح الشعب الفلسطيني ـــ في الدور الارضي خمس دقائق . بعدها اقتحمت مجموعة من بوليس السجن بالكرابيج والهراوات العنبر . بدأوا يخرجوننا زنزانة بعد أخرى والعصي تنهال فوق رؤوسنا وصدورنا واكتافنا . كل زنزانة كان يطلب منها الركض بأقصى سرعة ووراءها كان يركض بعض السجانين وهم يلاحقون المعتقلين بهراواتهم . تم تجميعنا في ساحة التأديب، وهي ساحة ضيقـــة توجـــد فيها بعض الزنازين الانفراديـــة حيث يلقون فيها

بالمعتقلين المشاغبين .

(العروسة) كانت منتصبة امامنا . والعروسة ـــ هيكل من الخشب يشبه المراة ـــ المراة الخشبية بالنسبة الى اللواء السجان اسماعيل همت ـــ امراة من الخشب لها ذراعان مفتوحتان دائماً ـــ توجد في كل منهما فتحة لكي يدخل فيها السجين يده . اما الراس فمفتوح يكفي لكي تدخل راسك فيه . كان على كل واحد منا ان يتزوج هذه العروس من الخشب بعد أن يخلع قميصه .

تقدم من العروس . يدخل السجان ذراعيك في فتحة ذراعيها ، ويدخل راسك في راسها .

يتقهقر السجان الى الوراء وبيده كرباجه الطويل ويقف في حالة استعداد .

اسماعيل همت كان يشرف على عملية الزواج .

كان ضبعاً بعينين عسليتين .

ـــ اضرب على الظهر الفلسطيني الحنين .

وتلفك حبال الكرباج . الجلدة الاولى تحس انها قد اقتلعت ضلعاً . كانك قد ضربت بسيخ من النار . وتتوالى الكرابيج ، عند الكرباج العاشر تحس انك سقطت في بركة من النمل . كان معنا بعض الطلاب الذين لم يتجاوز الواحد منهم السابعة عشرة من عمره جلد حتى الكرباج العشرين .

كشجرة مضروبة بفاس في ظهرها يخرجك السجان من العروسة ويرغمك على ارتداء قميص السجن وظهرك مسلوخ . لقد تمت حراثة الظهر الفلسطيني .

كل ثلاثة وعشرين معتقلا أسكنوهم في زنزانة واحدة هي معدة أصلا لسجين واحد . كنا نتبادل الوقوف في الزنزانة .

وانت واقف تحاول ان تتذكر شيئاً ما يعاونك على الوقوف . تدخل شجرة الجميز ـــ الشجرة الفلاحة ـــ التي تحبل وتلد اكثر من مرة في العام . كنا نتسلقها والحبات من (البلمي) التي لم نكن نستطيع الوصول اليها ، كنا نهز الفرع فيتساقط ثمر الشجرة الفلاحة .

احد المدرسين المعتقلين يرفع صوته :

وانـــي لمشتـــــاق الى ارض غـــزة
وان خانني بعــــد التفــرق كتماني
سقى اللـــه ارضاً لو ظفــرت بتربها
كحلت بـه مـــن شدة الشوق اجفاني

كتب عن غزة ذات يوم الامام الشافعي .

ولكن غزة بعيدة كشجرة الجميز .

في صباح اليوم التالي التصقت القمصان بظهورنا ، فكان انتزاعها يشبه عملية سلخ الجلد . كانت مشكلة الاعتناء بظهورنا هي قضية الطبيبين الشيوعيين المعتقلين : د. يوسف ادريس ، د. حمزة بسيوني حينما اعادونا الى الزنازين ، كنا كمن افرج عنه . السجان الجاويش حسن المشرف انكسرت عينه كالبيضة فوق بلاط السجن بعد عملية العروس الخشبية . حينما يكون وحيداً ولا احد من السجانين يراقبه كان يتمتم لنا :

ــ كنتم اشجع من رايته يتزوج تلك العروس الخشبية .

★ ★ ★

بعد شهر وصلتنا الطرود من غزة ومع كل طرد رسالة من أم أو اب او زوجة . سجائر واسبرين وملابس داخلية واحذية وبيجامات وصابون .

بعد ارتداء البيجامات اصبحنا شيئاً مختلفاً تماماً . منعوا عنا البنطلونات والقمصان .

احد الرفاق حينما ارتدى بيجامته قال :

ــ سوف يطول نومنا في سجن مصر العمومي .

واضفت : والزنزانة هي حجرة نوم الفلسطيني .

★ ★ ★

المعتقلون الذين ينسون اعياد ميلادهم في الخارج يتذكرونها دائماً في السجن . دائماً يحاول السجين ان يفرح . وعيد الميلاد بالنسبة الى المعتقل او السجين هو فرح زنزانته . فالزنزانة تقدم له علبة كاملة من السجائر . والزنازين الاخرى تقدم هداياها : السكر والشاي .

وهكذا احتفلنا في سجن مصر العمومي بعيد ميلاد الدكتور يوسف ادريس . كان في الدور الثاني ودعاني لحضور عيد ميلاده . وحملت هدية زنزانتي اليه : كانت علبة كاملة من السجائر تحتوي على عشرين عذراء تحلم كل واحدة بعود من الكبريت .

عذراء بعد عذراء راح يوسف ادريس يدخن .

نحن دخنتا الكرابيج وهو يدخن العذارى .

في ايام فيضان النيل ينتظر الصيادون في غزة على الشاطىء لكي يروا ذلك النهر من الطين الذي يشق البحر وهو يحمل سمك البوري اليهم .

مصر التي تحمل السمك للفلسطيني في غزة ، جعلوها تحمل الكرابيج له في سجن مصر العمومي .

★ ★ ★

بدات رسائل غزة والمخيمات تصل الينا كل خمسة عشر يوماً . سمحت المباحث والمخابرات بكتابة الرسائل . كل مخيم كان يسلم علينا جميعاً وكل رسالة كانت تختم دائماً :

ــ وكل المخيم يسلم عليكم كبيره وصغيره .

بداوا يرحلون الاخوان المسلمين . في ذات يوم ذهب سيد قطب ولم يعد .

★ ★ ★

في زنزانة كان احد المعتقلين يحكي لزنزانته قصة (مارتن ايدن) للكاتب الاميركي جاك لندن . وفي زنزانة اخرى يروي مدرس آخر لزنزانته قصة نسر دينستويفسكي في رواية (يوميات بيت الموتى) .

مسجونون يعثرون على نسر مكسور الجناح ، يعودون به للسجــن . يطعمونه لقم اللحم التي هي كل ما يملكون . النسر ظهره الى جدار العنبر ومنقاره في سقف الزنزانة . يرفض ان يلتقط بمنقاره لقم اللحم . بعد ان اشتد الهزال على النسر يخرجه المسجونون من العنبر . خارج بوابة السجن يطلقونه . . يظل النسر يركض ويركض دون ان يلتفت الى الوراء حتى يختفي .

ولكنك واضح تماماً امام السجانين . في زنزانة ثالثة ، كان الرفاق يحررون في الهواء الجريدة اليومية للحزب .

حينما تختفي معجزة اليد تظهر معجزة الفم .

★ ★ ★

انقطع اتصالنا بالحزب في تلك الفترة ، فبعــد اعتقالنا اشتدت الرقابة البوليسية الى درجة مراقبة الذين يشترون الكتب والمجلات من مكتبات غزة .

من يشتري جريدة . يذهب اسمه الى اومباشي المباحث . من يشتري كتاباً يذهب اسمه الى الجاويش ، من يكتب رسالة يذهب اسمه الى ضابط المباحث ، اما من يؤلف كتاباً ، فان اسمه يذهب الى الحاكم الاداري العام .

★ ★ ★

ــ في سجن القناطر الخيرية سوف تعاملون معاملة افضل ؟

وخرجنا من فتحة بوابة سجن مصر العمومي واحداً بعد الآخر كما دخلنا . والكلبشات في ايدينــا الى اللوريات المغطــاة التي قامت بنقلنا الى سجــن القناطر الخيرية .

من سجن الى سجن بلا تأشيرة مرور .

★ ★ ★

حينما وصلنا سجن القناطر الخيرية . كل الشيوعيين المصريين كانوا في استقبالنا . ومن الدور الثالث والرابع انطلق صوتهم :

ـــ عاش كفاح الشعب الفلسطيني .

اسكنونا في الدور الثاني .

لقد تقـــدم الفلسطيني درجات سلم الى الامام مـــــن الدور الارضي الى الدور الثاني .

☆ ☆ ☆

منذ الرسالة الاولى على ورقة سجائر، ارسلها بواسطة حبل (فخري مكي) رحت اشم رائحة ذلك الضبع . منذ ١٩٤٨ كنا نناضل من اجل وحدة الحركة الشيوعية المصرية . وفرحنا لاعلان الحزب الشيوعي المصري الموحد . وكان علي ان ابتلع كل الحجارة التي يرسلها فخري مكي عبر رسائله بالشيفرة والتي كان يترجمها لي الرفيق (س. ب) واقول :

ـــ يذبحون الف دجاجة ويجمعون ريشها ولكنهم لن يستطيعوا ابدآ ان يزوروا ويصنعوا ديكآ يصيح . فوجئت في دورة المياه حينما طلب مني الرفيق سعد بطرس عضو المنظمة الشيوعية المصرية ان احدد موقفي تمامآ فاما اكون معه او اكون مع مئات الشيوعيين المصريين ، كان يعتقد انهم جميعآ من البوليس . وبالطبع اتخذت قراري مع الشيوعيين المصريين .

★ ★ ★

الآن صرنا نصنع الشاي بأيدينا . كل زنزانة تخفي قروانة . وبواسطة علبة بندورة او علبة سردين او علبة لحم يتم ثقبها بالمسمار ، كنا نبل قطعة من القماش بالمازوت . تشتعل الخرقة في العلبة المثقوبة وتبدأ رائحة الشاي تعبق . هذا البوتاغاز اسمه : التوتو .

★ ★ ★

الرفاق المصريون يستضيفوننا في زنازينهم . كنا نحتال على السجانين . فالذي يهم السجان قبل اغلاق الزنزانة هو عدد المعتقلين في كل زنزانة . ومكان المعتقل الفلسطيني الغائب في زنزانة اخرى كان يحل محله احد الرفاق المصريين .

في كل وثائق الحزب الشيوعي المصري كان دورنا كشيوعيين فلسطينيين في قطاع غزة من اجل وحدة المنظمات الشيوعية المصرية يحتل مكانه البارز . كنا نهز ساعد العامل المصري فتتساقط الكتب .

★ ★ ★

بدأ الهواء القادم من الزنبق في شاطىء غزة . من الزنبق ومن ريش طائر الفري ، من شجر السدر ومن شجر الخروب . من السمك الذي يلعب فوق الرمل لعبة اليمامة التي تختفي في فم الطفل . بدأ الهواء القادم من غزة يحمل لنا اخباراً طيبة .

★ ★ ★

الحزب يقف على قدميه الآن ويمد ذراعيه الى ابعد مصباح في مركب صياد يصطاد السمك في منتصف الليل . وكذلك كان الهواء القادم من شوارع مصر . الهواء القادم من المصانع ومن الارض . كان يحمل أخبار انتصارات جديدة . في سجن القناطر الخيرية احتفل الرفاق المصريون باعلان جمال عبد الناصر كسر سلسلة احتكار السلاح . فم القاهرة على ذراع براغ . شامة القاهرة على خد موسكو . في سجن القناطر الخيرية يرفع جمال عبد الناصر يده ويعلن تأميم قناة السويس .

اولئك الذين هتفوا بحياة الشعب الفلسطيني لمدة خمس دقائق في الزنازين وجلدوا عشرين جلدة ، يهتفون الآن بحياة الشعب المصري وفي الزنازين أيضاً .

كان عرساً في كل زنزانة . فالمعتقل لا يتزوج عروساً من الخشب الآن ولكنه يتزوج امرأة اسمها : نهر النيل . الزنازين في تلك الليلة كانت تقدم الشاي والسجائر للسجانين الذين لم يفهموا اول الامر كيف يهتف معتقل بحياة سجانه وهو داخل الزنزانة .

★ ★ ★

في الليل حيث لا قلم ولا ورقة يحاول المعتقل أن يكتب شيئاً ما بأصابعه في الهواء . النجمة فوق البحر تتزوج بحاراً ولكنها فوق السجن تحب معتقلا .

كنا ننام ونحن نحلم بمحطة السكة الحديدية في غزة . كنا نحتضن صفارة القطار ، نحتضن عجلاته بين أذرعنا . نضع الفحم تحت رأسنا ، وتحس أن موسيقى ابعد نجمة تصل اليك :

يا سهير
انا في المنفى اغني للقطار
واغنى للمحطه
اي هزه
حينما تومض في عيني غزه

صلاح خلف — ابو اياد — يزورني في سجن القناطر الخيرية . بواسطته

تم تهريب قصيدتين مكتوبتين على ورق السجائر ورسالة سياسية هامة . كل فلسطيني في تلك الايام كان يريد أن يتحول الى ساعي بريد لفلسطيني آخر . الفلسطينيون يحبون طوابع البريد ويحبون كتابة الرسائل .

★ ★ ★

الرفاق المصريون تصل لهم القصائد والرسائل المهربة . ينسخونها ويهربونها للخارج .

في يناير ١٩٥٧ ، كانت المفاجأة الكبرى . دخل أحد الرفاق المصريين الى الزنزانة وهو يلوح بكتاب في يده ، وكان ديوان شعر يتضمن القصائد التي كتبتها في الزنزانة بالاشتراك مع شعراء مصريين : زكي مراد ، محمد خليل قاسم ، محمود توفيق ، كمال عبد الحليم .

صدر الديوان بعنوان (قصائد مصرية) رسمه المصور المناضل (زهدي) واصدرته (دار الفكر) وكان الاهداء :

« الى بطل التحرر الوطني جمال عبد الناصر » .

كان هو الديوان الثاني الذي ارى فيه قصائدي مطبوعة ، ولكن هذه المرة يلقي الديوان بمراسيه كسفينة في الزنزانة .

في ذلك الوقت أتم صلاح جاهين كتابة ديوان (كلمة سلام) . قصيدة في الديوان كتبها عني وعن تظاهرات مارس ١٩٥٥ :

ـــ يا معين يا صوت الضحايا
ارعد بصوتك معايا
ارهب عدوي وعدوك
حننتصر في النهاية

حينما مضى صلاح جاهين الى الرقابة ، طلبوا منه حذف القصيدة ، ورفض صلاح جاهين وخرج الديوان يحمل القصيدة. صلاح جاهين الجديد يطلق الرصاص على صلاح جاهين القديم .

★ ★ ★

خرج (فخري مكي) من السجن بعد ان انهى مدة الحكم عليه . قبيل العدوان الثلاثي .

بعد تأميم قناة السويس ، وصفقة الاسلحة التشيكية ، ووقفة جمال عبد الناصر في وجه حلف بغداد ، تم العدوان الثلاثي على قطاع غزة وبورسعيد ونحن في السجن .

كان جمال عبد الناصر قد اصدر قراره باطلاق سراح الشيوعيين المصريين .. اما نحن فالى أين نمضي بعد احتلال القطاع ...؟

ونقلونا الى عنبر آخر في سجـن القناطر . كنا كمـن يخرج عنه داخل السجن . في ذلك الوقت جاء مندوب عن المخابرات المصرية ليبلغنا قرار الموافقة على الافراج عنا الى اي بلد نريده ، وكنا نعرف لعبة المخابرات وقد اتضحت هذه اللعبة فيما بعد ؛ فحتى حينما حملت الجماهير في قطاع غزة سيارة الفريق (محمد حسن عبد اللطيف) وادخلته غزة . بعد أن حطمت بيدها مؤامرة التدويل . جاء مندوب من المخابرات ليبلغنا ان لا نفكر بالعودة الى قطاع غزة ، وعلينا ان نختار اي بلد للرحيل اليه .

☆ ☆ ☆

هؤلاء الذئاب لم يتعلموا شيئاً ولن يتعلموا ابداً . واعلنا الاضراب عن الطعام واستمر الاضراب سبعة ايام حتى جاء مندوب من ادارة الحاكم الاداري العام لمقابلتنا وطلب منا فك الاضراب علـى اساس الافراج عنا على دفعات واعادتنا جميعاً الى قطاع غزة .

نديم نحوي ــ مسؤول الطلبة الشيوعيين الاردنيين في القاهرة في ذلك الوقت ــ رفض تقديم حتى الدواء لنا :

ــ ولماذا تضربون عن الطعام ...؟

كان قد انهى اقامته في القاهرة وقرر العودة الى الاردن . وحينما طلبت منه عندما زارني في السجن أن يرسل آلة رونيو كان الحزب الذي قاد النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي في أشد الحاجة لها قال :

ــ لقد مضى عهد آلة الرونيو في قطاع غزة .

بعد ذلك بوقت استنكر نديم نحوي الشيوعية وخرج فيما بعد مع المخرب فهمي السلفيتي في أول انقسام ضد الحزب الشيوعي الاردني .

★ ★ ★

زارنا منير الريس رئيس بلدية غزة في ذلك الوقت وقال لنا امام السجانين وضباط السجن :

ــ أنتم الذين علمتموني الوطنية .

رغم موقف نديم نحوي ، فلقـد كان دائماً يزورنا شيوعيون أردنيون وفلسطينيون .

خلية شيوعية من الطلاب الفلسطينيين والاردنيين جاءت تزورنا وايديها

مثقلة بالفاكهة والورق . كان من بين الخلية : رفيقة عمري ، صهباء البربري .

★ ★ ★

خلا السجن من كل المعتقلين السياسيين . وحدنا مع المسجونين العاديين وعشرات من اليهود تم احتجازهم خلال العدوان الثلاثي لترحيلهم الى فرنسا وايطاليا .

بعضهم كان يأتي ويسألنا لماذا نحن في سجن القناطر ؟

المخابرات تطلب منا الرحيل الى إي وطن ، وهؤلاء اليهود المحتجزون يرحلون الى وطننا رغم ارادة بعضهم .

★ ★ ★

في الصيف يأخذك القطار الى البحر ، وفي الشتاء يأخذك المطر الى الشجر ، ومن بعيد كان يأتي الينا صوت احد المسجونين العاديين وهو يصرخ في الليل يحمل البشارة :

— عنبر فلسطين
كله يسمع
ما سجن انبنى على سجين
ولا مستشفى انبنت على مريض
اخوكم المعلم عبد الباسط عبد العال
طالع من عشرين سنة اشغال
عقبال عندنا وعندكم يا حبايب

★ ★ ★

سجين يرفع صوته بالبشارة بالنيابة عن السجين المفرج عنه ، فيعم الفرح السجن . مع الحارس الليلي نرسل تحيتنا : سكراً وشاياً وعلبة سجائر .

علاقتنا بالمسجونين العاديين قدمت لنا الكثير ، فقد كانوا يحبوننا ويحترموننا بعد ان وثقنا معهم . احد المسجونين العاديين كان يعمل في بيت مأمور السجن ، واكتشفت زوجة المأمور ضياع بعض الاشياء واتهمت السجين بالسرقة . ربطه مأمور السجن في عامود في ساحة التاديب . طلاه من رأسه حتى قدميه بالعسل الاسود . حداة بعد اخرى كانت تهبط وتنقر راس السجين وترتفع في منقارها لقمة من الدم والعسل . هددنا بالاضراب اذا لم ينزل السجين من العامود ورضخت ادارة السجن . من يومها احبنا المسجونون واطلقوا على العنبر الذي كنا نقيم فيه : عنبر فلسطين .

★ ★ ★

في تلك الايام زارني احد الرفاق وقال لي : ان شفيق الحوت كتب مقالاً في رثائي في مجلة الحوادث البيروتيــة عام ١٩٥٦ . حول شفيق الحوت قصيدة ــ السيل ــ قصيدة من قصائد ديوان المعركة الى مسرحية قدمها على مسرح الجامعة الاميركية في بيروت . في الوقت نفسه كان عبد الكريم الكرمي ــ أبو سلمى ــ يرثيني من اذاعة دمشق .

ولكن السجن لا يبنى على سجين، ولا تبنى مستشفى على مريض فقد خرجت الدفعة الاولى من المعتقلين الفلسطينيين وتلتها الدفعة الثانية . بدأنا نحس اننا نقترب اكثر من عجلات القطار التي كنا نراها كالطواحين نلقي فيها بأيامنا فتدور لتخرج رغيف الوطن .

الاخبار بدأت تاتي الينا من القطاع ، اخبار الحزب الذي كان يناضل بيده ضد الدبابة الاسرائيلية .

الحزب الذي تمكن رغم كل الاسلاك الشائكة من اقامة الجبهة الوطنية في قطاع غزة . هذه الجبهة التي رفض أن ينضم اليها (بعض العقائديين ؟) بحجة ان الحزب اعلــن خلال الاحتلال الاسرائيلي عــن اهمية النضال المشترك مع القوى اليهودية التقدمية .

احتاج قرار الحزب حول النضال المشترك مع القوى اليهودية التقدمية اكثر من عشرين عاماً لكي ياتي المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة عام ١٩٧٧ ويتبنى ما قاله الحزب الشيوعي في قطاع غزة عام ١٩٥٦ .

تقارير المخابرات كانت تقــول لجمال عبــد الناصر : ان القطاع يتجــه الى التدويل .

يعذبون الشعب ويوجهون له الاهانة . بعد التظاهرات التي اجتاحت قطاع غزة واسقطت مؤامرة التدويل ورفعت يدها تنادي جمال عبد الناصر ، ارسل جمال عبد الناصر الفريق محمد حسن عبد اللطيف كحاكم اداري عام للقطاع . وفي سلة القمامة سقط صوت المخابرات .

كانت الاخبار تاتي الينا عن عبدالله عوض الله ، وطعمة مشتهى ، المناضلين الشيوعيين المعتقلين اللذين ضربا حتى الموت من قبل البوليس الاسرائيلي ، وكان كل الذي نطق في فم كل واحد منهما هو خيط الدم الذي سال من شفتيه .

★ ★ ★

في اوائل تموز ١٩٥٧ ، صدر قرار الافراج عنا. القطار هو اجمل ما اخترعه الانسان، والفحم الحجري هو كعكة تشتهي ان تقطعها بالسكين وتاكلها بالشوكة.

★ ★ ★

تركنا وراءنا سجن القناطر الخيرية وحملنا اللوري الى محطة القاهرة . كان الحرس من المباحث يظهرون الفرح بعودتنا ؟ ربما لثانية واحدة كل خمس سنوات يتذكر شرطي المباحث الفلسطيني انه فلسطيني ، ولكنه بعد ذلك يمضي في كتابة التقارير ضد الفلسطيني .

دخلنا رفح الفلسطينية . اختلف الهواء تماماً ؛ اصبح ياتي من البحر مشبعاً برائحة شجر التين وشجر الاثل وشجر الخروع .

في رفح انزلونا من القطار واركبونا أحد اللوريات الى غزة ، فوصلنا عند العصر . اخترق اللوري شوارع غزة الخلفية حتى بلغ سراي مركز البوليس في الرمال . من هناك ذهب كل واحد منا الى بيته .

★ ★ ★

ومضيت الى بيت عمي عاصم . صرة الثياب في يدي وكان فيها كل ما أملك : قميص وفرشاة أسنان وقطعة صابون .

اول ما دخلت حسبوني بائعاً جوالا . لم يكن لدي ما ابيعه ـــ خالتي وظيفة عرفتني ـــ فتحت ذراعيها وسقطت بينهما وايقظتني في مساء اليوم التالي . تركت باب الحجرة مفتوحا وفتحت كل النوافذ ونمت .

كانت المرة الاولى التي انام فيها بعد عامين وشهرين من الاعتقال وهدير البحر يصل الي .

طوى الب

الدَفْتَر السَّادِسْ

كان الحزب لا يزال ينزف من الضربة البوليسية الاسرائيلية حينما انهار عطية مقداد امام — بن كنعان — ، وقدم له الخارطة التنظيمية للحزب والجهاز الفني ، وسلمه رؤوس بعض أصدقاء الحزب الذين كان يعرفهم .

وجاء الرفاق الاردنيون المنفيون من الاردن وعلى راسهم الرفيق فخري مرقة، وفور وصولهم قدموا أنفسهم للحزب وقدمهم الحزب للجماهير .

كان فخري مرقة بيده اليمنى التي يهزها دائماً حينما يتكلم ، بعينيه اللتين تلمعان بحب فوق الوصف لفقراء الناس وللاشياء الصغيرة البسيطة في حياتهم . فخري مرقة كان نبع ماء تفجر في الحزب . وفي اللقاءات الوطنية كان صوته هو الذي يحسم بمسؤولية وتواضع وحنان العديد من القضايا .

حينما كنا ننام معاً في حجرة واحدة ، كان يصحو عند الخامسة تماماً، يرتدي ثيابه ويبدأ يسير في الحجرة وأصحوا على خبطات حذائه فيعتذر ويقول :

آسف ولكن هذا ما علمتني اياه العسكرية .

كان يحب الشيخ حسن سلامة بدمه وكان فخري مرقة بالنسبة للشيخ مثل يده وقلبه .

★ ★ ★

النضال اليومي للحزب ، كان يتجه اساساً الى تكوين الجبهة الوطنية المتحدة العريضة ، هذه الجبهة الوطنية التي كانت تضم العشرات من الوطنيين على اختلاف انتماءاتهم السياسية ، كانت هي القوة السياسية الرئيسية في قطاع غزة ، والتي تصدت لقيادة النضال السياسي بعد اسقاط مؤامرة التدويل وعودة الادارة المصرية الى قطاع غزة .

كنا قد عدنا جميعاً الى مدارس الوكالة، وبالمساندة الشجاعة لخليل عويضة .. وعدت ناظراً لمدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين .

★ ★ ★

قررت مع صهباء البربري ، ان نعلن خطوبتنا رسمياً ، ولكن والدتها كانت تقيم في القاهرة ، وطلبت ان اذهب اليها . انا الممنوع من السفر الا كمعتقل في قطار . وتوسط بعض الاصدقاء لدى الحاكم الاداري العام ، فاعطتني المباحث ، تصريحاً بالسفر لمدة ثلاثة ايام .

وسافرت للقاهرة، مصطحباً شرطيمباحث ــ ربما أرسلوه كشاهد زواج ــ ولقد كان شكله غريباً وهو يصعد ورائي الدرج ، الى شقة والدة خطيبتي ، وهو يحمل باقة كبيرة من القرنفل الاحمر ... اشتريتها فاصر على حملها ...

شرطي مباحث ، يحمل باقة قرنفل ...؟

تم اعلان الخطوبة ، ووضعت الخاتم في اصبعي ، ومضينا الى مطعم صغير، وكان المناضل العراقي نوري عبد الرزاق حسين هو الشاهد الوحيد ، كان وجوده هو هدية الحزب الشيوعي العراقي لي .

في هذا الوقت ، صدر لي عن دار الفكر في القاهرة ملحمة :

« مارد من السنابل » :

ــ قد اقبلوا فلا مساومه

المجد للمقاومه ...

كتب مقدمة الملحمة الدكتور عبد العظيم انيس .

وديوان (الاردن على الصليب) :

ــ انا مصلوب اغرد

ولعمان ونابلس واربد

وكتب مقدمته الدكتور عبد الرحمن شقير ، ورصد ثمنه لمساندة المعتقلين الاردنيين .

★ ★ ★

اعلنت المخابرات فجاة عن اكتشاف مؤامرة لالحاق قطاع غزة بالاردن ، وقالت المخابرات ، ان الذي كشف المؤامرة هو : مصطفى ابو مدين . وان راس المؤامرة : سعدي الشوا . وانه يتصل بالملك حسين عن طريق حابس المجالي .

المخابرات تريدها محاكمة سرية ولكن الحزب رفض ومعه القوى الوطنية وطالب بمحاكمة علنية . ما دام هناك مؤامرة .

وبالفعل تمت المحاكمة العلنية في قاعة مدرسة فلسطين الثانوية الرسمية ، وكان يراس المحكمة العسكرية كمال المهدي حميدة . وحكم على سعدي الشوا بالاعدام .

بعد ذلك بشهور . انتقل كمال المهدي حميدة . كمدير عام للمباحث الى وظيفة اخرى وهي : هندسة الغارات الدموية على مدارس الوطنيين ، في حملة اصطياد علنيه لرؤوسهم .

حينما اعلنوا الجمهورية العربية المتحدة ، كنا اول من قاد التظاهرات في قطاع غزة . تأييداً لها ولم نكن نتصور ونحن ملء الشوارع نتظاهر من اجلها ، انه سيبني وقت قريب . توضع فيه كل القوى الديمقراطية والوطنية والشيوعية ، في بنيو ملىء بماء النار .

وكالصياد الذي يعود لا يحمل سمكاً في سلته لبيته، ولكنه يملأ سلته بالزنبق البرى من شاطىء غزة . كنا نعود الى ثورة ١٤ تموز . كانت عطر الزنبق البري الوحيد الذي يفوح وسط حقل الافاعي الذي وضعنا فيه . . .

ولحسن حظ الرفيق فايز الوحيدي . انه مات مكرماً من الحزب والجماهير ، قبل هجمة الهكسوس الجدد .

★ ★ ★

بدات الغارات الاعلامية ضد القوى الديمقراطية والشيوعية تجتاح كقطعان من الضباع كل شيء اخضر في الوطن العربي .

فالمباحثات بين انور السادات ومحمود امين العالم ، كمندوب عن الحزب الشيوعي المصري . قد فشلت . كان المطلوب من الحزب الشيوعي المصري أن يحل نفسه — ما دام كل شيء على ما يرام ...؟ ورفض محمود امين العالم ، لا لأن كل شيء على ما يرام . بل لأن احدا لا يملك حق حل حزب شيوعي .

والنتيجة بالطبع كانت الغارة على الحزب الشيوعي المصري ، والقبض على اعضائه في أول يناير ١٩٥٩ .

وبداوا يفتحون في القاهرة ، ملف الشيوعيين والديمقراطيين في قطاع غزة .

الهواء ينقل بذور جوز الهند الى الضفة الاخرى في الشاطىء الآخر ، والهواء الذي ينقل البذور ، ينقل ايضاً ، بذور اصوات البلطجية . وانتقل « الصوت » صوت ــ احمد سعيد ــ الى هواء قطاع غزة .

كمال مهدي حميدة ، الذي كان يجلس في استراحته على شاطىء غزة ، والى جواره كلبه وسلة مليئة بالسردين الخارج لتوه من الشبكة ، السمك الذي كان لا يزال يرتعش ، فيمسك كمال مهدي حميدة ، بالسمكة التي تكاد تنط من يده ، ويلقمها لكلبه . . .

كان ــ سمكة القرش ــ هذا ، يريد أن يفعل بنا ، ما كان يفعله بالسمك ، ان يلقمنا لأفواه كل القوى الفاشية والتي كان اشدهـــا عداء ــ العقائديون الفاشيون ــ وفلول الاخوان المسلمين .

الدم والحديد والنار ، أصبح ضد الشيوعيين والديمقراطيين، والامة العربية الواحدة يجب أن تتوجه ضدهم :

بدنا نقول عالمكشوف

شيوعي ما بدنا نشوف

هكذا كانوا يصرخون في ساحات المدارس ، في حجرات الدراسة ، ويهدد بعض الطلاب الذين جندتهم المباحث والمخابرات ــ ودخلت اليهم من خلال الفم الجائع ــ مدرسيهم من الشيوعيين والوطنيين ، داخل حجرات الدراسة . غير أن تهديد المدرسين بواسطة بعض طلابهم لم يعد يكفي ، ولم تعد تكفي أيضاً كتابة الشعار المشؤوم فوق اللوح أو فوق الحائط :

ــ بدنا نقول عالمكشوف

شيوعي ما بدنا نشوف

وبداوا يستدعون المدرسين والطلاب الى مكاتب المباحث والمخابرات ، ويطلبون منهم ، اعلان استنكار الشيوعية في الجرائد . . . أو في ساحات المدارس أمام الطلاب ؟

في الباص ، او في التاكسي ، كان يتبعك دائماً احد المباحث ، يأخذ مكانه الى جانبك أو الى جانب السائق ، أو احد الركاب ، ويرفع صوته بلا مناسبة :

ــ لقد القوا القبض علـــى احـــد الشيوعيين وهو يحاول ان ينسف تمثال الجندي المجهول . . . ؟

ثم يلتفت اليك وأمام ركاب التاكسي او الباص ويسألك ، وعيناه تكادان تلدغان وجهك :

ــ هل انت شيوعي ...؟

وتكتم البصقة، وتهبط من الباص او التاكسي، ولكنه يهبط ويمضي وراءك...

كل هذا الجراد الذي انطلق من آذانهم وعيونهم وافواههم لم تكن له نتيجة ، كان عضاً في الهواء .

واتخذوا اسلوباً جديداً غريباً ، لم تكن تعرفه المدارس في تاريخها .

فجأة ... تكسر بوابة مدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ، مجموعة تحمل الحجارة واغصان الخروع ، وتقتحم ساحة المدرسة وهي تصرخ :

ــ يسقط عبد الكريم قاسم .

ولماذا يهتف بسقوط قائد ثورة ، في مدرسة تحمل اسم صلاح الدين الايوبي؟.

جاءني البواب ــ ابو سليم ــ ، وبعض المدرسين ، اتضحت المؤامرة تماماً ، فاصدرت على الفور قراراً للمدرسين باغلاق حجرات المدرسة على الطلاب ، ومنعهم من الخروج .

كان بعض المباحث مع التظاهرة ، وبعض الطلاب من مدرسة الزيتون الاعدادية للاجئين ، التي انطلقت منها تلك المجموعة من الطلاب ، فانضم اليهم عند بوابة المدرسة شرطة المباحث والمخابرات وبعض العقائديين والاخوان المسلمين وتقدموا الى مدرسة صلاح الدين الاعدادية . الى مدرسة (الكبش الشيوعي) .

كانت المباحث والمخابرات تريد بأي ثمن ان يشتبك (المتظاهرون) مع الطلاب ، ويتشرف شرطة المباحث والمخابرات مذبحتهم .

دخلت مكتبي ، واغلق (ابو سليم) باب المكتب ، ووقف امامه ، ووقف معه بعض المدرسين .

وبدات الحجارة تنهال على نوافذ مكتبي ... فتحطمت ... وتجمعوا حول النافذة وهم يلوحون بالعصي ، ويصرخون :

ــ اهتف معنا بسقوط عبد الكريم قاسم .

ويكسرون الباب ويدخلون .

يتوقفون امام باب المكتب ولم يكونوا يدرون ما هي خطتهم المقبلة .

امام ترددهم الذي دام لحظات خرجت بهدوء من بينهم ... فتبعوني الى الساحة ... وحملني احدهم على كتفيه ، بينما صاح آخر :

ــ اهتف بسقوط عبد الكريم قاسم .

ــ اهتف بسقوط الشيوعية .

قبل اربع سنوات ، كنت مرفوعاً فوق كتفين ... يسقط الرفيق حسني بلال لينقذني من الرصاص ... قبل اربع سنوات .

ويستمجلني احدهم :

ــ لماذا لا تهتف بسقوط الشيوعية ، وسقوط عبد الكريم قاسم ...؟

شرطي مباحث يفح في اذن احد الطلاب ، ويبلغني الفحيح :

ــ انه شيوعي ...

الموقف يزداد سوءاً ... وصرخات طلابي تشق زجاج النوافذ وتصل الي كقطرات الندى ، كتيار من النسيم .

كانت الجريمة فوق أطراف عصيهم ... وفوق طوب الترميد الذي يحملونه ... وفي عيونهم الزجاجية . ويضيق على الجنزير الذي ضربوه حولي .

وفجاة ، يخرج شرطي المباحث مسدسه ، ويطلق رصاصة فوق رأسي ، كانت لديه تعليماته وكانت الرصاصة اشارة بدء الهجوم علي .

فوجيء المتظاهرون ، بطلقة المسدس ، وانفتحت ثغرة في الدائرة ، كانت تكفي لكي اندفع منها وانطلق اركض بكل قواي .

فوجئوا بهروبي ، وفوجئت الشرطة ، وما اسرع ما انطلقوا ورائي وهم يقذفونني بالحجارة ويصرخون :

ــ امسكوه ...

ولكنني كنت قد بلغت البوابة ، واندفعت منها الى الشارع ، ودخلت باب اول بيت وجدته مفتوحاً واغلقت الباب ورائي ... كنت أسمع صراخهم وهم يقتربون من البيت ، وكان بيت الطبيب ــ صالح مطر ــ وانا مدين لهذا الرجل الطيب بحياتي ــ وسلام عليه اينما كان . فحينما بدأ (المتظاهرون) ، يقذفون نوافذ البيت بالحجارة ، ويحطمون الزجاج ويدقون بعصيهم على الباب ، حمل كل ما يمكن حمله هو وزوجته ووضعاه خلف الباب الذي راح يهتز تحت ضربات العصي وقضبان الحديد . طلب الي ان اصعد الى الدور الثاني .

ــ لو اقتحموا الباب تستطيع أن تهرب من فوق السطح . سطوح البيوت في حارة الدرج ، ملتصقة ببعضها البعض ، وكأنها سقف بيت واحد .

وراح الدكتور ــ صالح مطر ــ يتصل بالمسؤولين ... كانوا يعرفون انني في بيته ، فلم يردوا عليه الا بعد ساعة ، وظنوا ان « متظاهريهم » تمكنوا من اقتحام البيت والاجهاز علي .

ولكن خروج الجيران من بيوتهم ، ومنظر شرطة المباحث والمخابرات بين هذه الجوقة من المتظاهرين ، جعلت شرطة المباحث والمخابرات تبتعد كأنها

تراقب ، وترددت الجوقة .

فوجيء كامل حسين قائد المخابرات بالدكتور صالح مطر ، وهو يبلغه انني في بيته، وهناك متظاهرون يريدون كسر الباب، وكان أول سؤال يسأله كامل حسين:

ــ هل هو بخير ...؟

وكان جواب الدكتور صالح مطر :

ــ أنه لم يصب حتى بخدش .

ولم يكن يعرف أن هذه الجملة قد ازعجت قائد المخابرات كثيراً .

ــ لم يكن يريدني مخدوشاً ، ولكنه كان يريدني جثة .

وارسل كامل حسين احد ضباطه (سعيد يحيى) ــ هذا الضابط فيما بعد قامر بنقود المخابرات وزور شيكات ... وطردوه ــ وجاء الى بيت الدكتور صالح مطر ، لاصطحابي الى مكتبه .

الضابط وصل . واختفى المتظاهرون في غمضة عين .

واخذ يتفحصني بعينيه :

ــ كيف ، انك لم تصب حتى بحجر ؟...

واركبني الى جانبه في سيارته وهو يقول :

ــ لن نمر بالشارع الرئيسي ، انك تعرف لماذا ...؟

وكنت أعرف أن ضابط المخابرات ، اصبح يهددني بالجماهير ...؟

أول ما وصلت مكتب قائد المخابرات صاح :

ــ لقد انتهيت .

ويتردد كامل حسين لحظات قبل أن يقول :

ــ اسمع ، هذه المرة افلت ، في المرة القادمة لن تفلت .

ونظر الى الراديو فوق مكتبه وقال :

ــ انني اتلقى تعليماتي من الراديو .

وكان راديو القاهرة ، في كل نشراتــه الاخبارية ، يعلن عــن اصطياد الشيوعيين في الشوارع .

ــ اذهب الى بيتك ، ولا تخرج ابداً ، يمكن أن استدعيك في اية لحظة .

★ ★ ★

امام بيت عمي عاصم . حيث كنت اقيم ، رابط شرطي مباحث ، وشرطي مخابرات ، كان كل واحد يراقب الآخر . وهما معاً يراقبانني .

بعد الغروب ــ كانت خالتي ــ (وظيفة) تغلق الباب ، وتضع وراءه طاولة

ضخمة . وترقد فوق كرسي الى جوار التليفون امام باب حجرتي حتى الصباح . وكنت اجلس مع عمي عاصم ، كل واحد منا ينظر الى الآخر ولا يتكلم .

ي اليوم التالي ، انتقلت الغارة من مدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ، الى كافة مدارس القطاع ، ووصلت الى مدارس البنات ايضاً .

بعض الطالبات والمدرسات ، في مدرسة الزهراء الثانوية الرسمية ، وصل الصوت اليهن ايضاً ، فتنادين لجر مدرساتهن من ضفائرهن .

ضربن دائرة حول صهباء البربري ورحن يهتفن بسقوط الشيوعية .

غزة التي ترتفع حجارة بيوتها بين كتفي زيتونة ، غزة الصدفة التي كانت تأوي اليها السفن الآتية من كل البحار ، غزة التي كان لأهلها دائماً عرسهم الواحد وجنازتهم الواحدة ، غزة التي كانت تفرش الزنبق والريحان تحت اقدام علمائها ، وشعرائها وتحترم الكتاب ، كما تحترم قرص الشمس . حولوها في يناير وفبراير ومارس وابريل ١٩٥٩ ، الى اسطبل للسكاكين ومسدسات المباحث وهراوات المخابرات والاخوان المسلمين والشوفينيين . وجعلوا بعض الطلاب يبصقون على ايدي مدرسيهم الذين علموهم بتلك الايدي .

من مدرسة صلاح الدين ومدرسة الزهراء ، انتقلت مكبرات الصوت الشوفينية ــ البوليسية الى مدرسة النصيرات حيث تم حصار الرفيق عبدالرحمن عوض الله ، الذي كان منقسماً على الحزب في تلك المرحلة ، ومن مدرسة النصيرات الى مدرسة رفح : عبد الله زقوت ومحمد ابو حمدة ، وبعدها انتقلت العصي الى مدرسة خان يونس : محمد الشامي .

★ ★ ★

الكرنفال بالملابس العادية ضد الشيوعيين والوطنيين ، من اجل ان تستكمل المذبحة كل تضاريس وجهها القبيح . كان لا بد من تظاهرة خاصة جداً ، يقوم بها الاخوان المسلمون في شوارع غزة .

فور انطلاق الحملة الصليبية . استولى الاخوان المسلمون على المآذن في غزة وخان يونس ورفح ودير البلح .

صعد احدهم درج المئذنة وفوقها ، بدل ان يصيح الله اكبر ، راح يصرخ :

ــ تسقط الشيوعية .

★ ★ ★

ذات يوم مشؤوم من ابريل ١٩٥٩ ، رفعوا المصاحف فوق ايديهم ، المصاحف التي لم يرفعوها ابداً ضد حلف بغداد . ولا في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي ، لم

يرفعوها من اجل عودة الادارة المصرية لقطاع غزة . ولا من اجل الجمهورية العربية المتحدة . ولا ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق .

ها هم يرفعون المصاحف في ايديهم الآن ويصرخون :

ــ قرآنكم في خطر ، تسقط الشيوعية .

والقرآن لا يكون في خطر . الا حينما يرفعه هؤلاء ، الذين قبلوا ان يدخلوا بمصالحهم ، الحجرة النجسة ، لمدير المباحث ومدير المخابرات ، حيث قام الجهازان بتنظيم تظاهرة حملة المصاحف في شوارع غزة . واقتربت المؤامرة من دورها النهائي .

استدعت ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، المشرف العام على التعليم بمدارس اللاجئين : خليل عويضة . وقدمت له قائمة بأسماء المدرسين في الوكالة ، والذين يجب طردهم من المدارس ، حتى تتوقف التظاهرات ...؟

ورفض خليل عويضة ، ان يوقع على حد السكين . ولم يكتف بهذا الرفض ، بل طالب المسؤولين بحماية المدارس من حجارة البلطجية . وحمل لادارة الحاكم الاداري العام مسؤولية المحافظة على النظام .

وخرج خليل عويضة ، واضيف اسمه الى قائمة المطلوب طردهم واعتقالهم .

★ ★ ★

انت محاصر في حجرتك . عيون المباحث والمخابرات مصوبة اليك كفوهات المسدسات . يأتي اليك صوت البحر فتذهب اليه .

البحر دائماً يضع (طاقية الاخفاء) . على راس المطارد ويخفيه عن العيون .

وكنت امضي الى البحر . اتذكر وانا في العاشرة من عمري ، حينما كنا نمضي ايام الصيف على شاطىء البحر في خيمة . كنت أتبع شبكات الصيادين ... يقعدون فوق ركبهم على شط البحر ، والشبكة تتهدل فوق اذرعهم ، وينظرون للبحر . وآخذ مكاني الى جانب الصياد ، وانظر انا الآخر الى البحر . فجأة تلمع قوالب الفضة المخضبة بعروق الذهب في الموجة . وينهض الصياد ... يمضي في الماء حتى وسطه ... وهو يرفع شبكته ثم يفردها ...

ويسحبها ويعود بها الى الشاطىء ... مثقلة بفضة البحر ...

★ ★ ★

ذات يوم قررت ان اكون صيادآ . وبعد الحاح ، اشترت لي خالتي (مريم) شبكة صغيرة . ولم اكتف بالشبكة ، فطالبت بثوب الصياد ، وبالحبل الذي يلفه حول وسطه . فيصبح للصياد ذلك « العب » ، الذي يضع فيه السمك .

ولبست ثوب الكتان ، وحزمت وسطي بقطعة حبل ، ومضيت بالشبكة . طال انتظاري وانا انظر الى البحر ولم تلمع قوالب الفضة في الموج . وبقيت في مكاني ، حتى بدأت الشمس تسقط في البحر . كان يعز علي أن أعود هكذا الى خيمتنا . . . وعبي فارغ . . .

مر أحد الصيادين ، كان يعرف عائلتي، نظر الى الشبكة كانت ناشفة تماما ، ولم يتكلم . اخرج ثلاث سمكات من عبه ، ووضعها في عبي ، وابتسم ومضى . . .

القيت الشبكة في الماء لتبتل ووضعت فيها بعض عشب البحر ، ومضيت اركض الى الخيمة . . .

ــ يا الله . . .

لا حد للمقاومة التي تعطيها لك الطفولة التي تفوح منها رائحة البحر . ولكن عملية الصيد الكبرى ، تم تنفيذها في منتصف ليل ٢٣ ــ ٢٤ ابريل ١٩٥٩ .

عند منتصف الليل تماما . طوقوا الباب . ورفضت خالتي (وظيفة) ان نفتح . صاحت من وراء الباب وهي لا تدري ماذا تقول :

ــ عودوا في الصباح . . .؟

وبداوا يدقون الباب بكعوب بنادقهم .

وتقدمت منها :

ــ لا فائدة . . . لا بد أن نفتح الباب ، ونعرف ماذا يريدون .

كنت أعرف تماماً ماذا يريدون . . .

وفتح عمي الباب . فاندفعوا منه . كانوا جنوداً في ثياب الميدان ، الخوذات الفولاذية تغطي رؤوسهم ، والبنادق في ايديهم ، ضابطهم كان يشهر مسدساً . كانوا كمن يقتحمون كيبوتسا .

من هول المنظر . سقطت خالتي فوق الارض ، ومنعوني من الوصول اليها . احاطوا بي وطلبوا مني الخروج معهم .

كان عمي قد سقط الى جانبها وصرخت :

ــ اطلب الدكتور حيدر عبد الشافي فورا .

ولكن احد الجنود . اقتلع التليفون من مكانه فوق الطاولة ، والقى به فوق البلاط نتحطم .

وماتت خالتي (وظيفة) وانا لا ازال عند باب البيت ، لم اركب الجيب العسكري بعد . . . ماتت بالذبحة الصدرية .

وحينما اسرع الدكتور حيدر عبد الشافي ، بعد ان كلمه عمي عاصم من تليفون الجيران . كان قلبها قد توقف . . . هذا القلب الذي كان طول الوقت ،

طائر النورس الذي يرفرف فوق رأسي في زنزانتي في السجن الحربي في القاهرة ، فكلما كان حمزة البسيوني يصرخ :

ــ استنكر الشيوعية .

كان صوت قلب خالتي ــ حيث تركته ملقى فوق البلاط ــ يطغى على صوت حمزة البسيوني ويدق :

ــ لا تدعهم يقتلوني مرة ثانية بالذبحة الصدرية .

ولم امكنهم من قتلها مرة ثانية . . .

في ٢٧ / ٤ / ١٩٥٩ ، اي بعد اعتقالي بثلاثة ايام ، تم طرد ابي وامي واخوتي من الكويت . . . مع العشرات من المدرسين والموظفين . . .

وهكذا قتلوا خالتي ، وطردوا اسرتي ، واعتقلوا خطيبتي ، واعتقلوني .

الدفتر السابع

مستطيلات ومربعات من الطوب الاصفر ، يحيط بها سور من الطوب نفسه ... وفي كل زاوية من زوايا السور ، يرتفع برج (الطابية) يشبه المئذنة ، وفوقها يقف طول الليل حارس ، يراقب ساحة السجن والسور يصرخ في صوت ممطوط :

ــ نمرة واحد تمام .

ويجيبه صوت الحارس في الطابية الثانية :

ــ نمرة ٢ تمام .

وينتقل الصوت من الطابية الثانية الى الطابية الثالثة والرابعة . ويستمر الزعيق حتى الفجر .

من تلك البوابة . دخل اللوري المغطى الى ساحة السجن الحربي ، وكان تحت مظلته المعتقلون الفلسطينيون من قطاع غزة .

★ ★ ★

هبطنا من اللوري واحدا بعد الآخر . كانوا مستعدين لاستقبالنا . احاط بنا

حرس السجن الحربي وثلاثة كلاب ــ عرفنا فيما بعد انهما كلبتان : « جولدا » و « عنايات » ، وكلب يدعي : « لاكي » ؟
ــ حظاً سعيداً في السجن الحربي .

★ ★ ★

اثنين ... اثنين ... أوقفــونا في طابور . رفيقي في الصف الاول كان خليل عويضة : المشرف العام على التعليم بمدارس اللاجئين . وورائي كان نائبه : فريد ابو وردة ... وفي آخر الطابور كانت صهباء البربري ــ كانت أول فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي .
ــ انتباه ...
يصرخ قائد الحرس ، كان برتبة جاويش ، نحيلا كالكرباج ، وجهه طويل حاد كالناب ، ولكن الحرس كانوا نادونه : حضرة الصول ؟ ... بدات دورة لاكي وجولدا وعنايات حولنا اكتفى الكلب والكلبتان بشمنا هذه المرة .
ــ انتباه ...
لا تدري ماذا تفعل ، ولكنك تنتبه .
ــ ضم القدمين . لا تلتفت . انظر الى الامام .
وننظر الى الامام .

★ ★ ★

كان بعض الجنود يركضون في دائرة في ساحة السجن ، وكل جندي قد علق حذاءه في عنقه . وهكذا كانوا يؤدبون الجنود الذين « يشاغبون » ، يركضون حفاة ، وأحذيتهم معلقة في رقابهم ...؟
ان حزيران ١٩٦٧ ، يقدم أوراق اعتماده كسفير فوق العادة .
ويظهر ــ حمزة البسيوني ــ قائد السجــن الحربي ، تهيَج الكلبتان ، ويندفع اليه لاكي ، فيقفز فوق ركبتيه . يتحول الحرس فور ظهوره الى اعمدة من الطوب الاصفر ــ حتى جلد السجانين في السجن الحربي يأخــذ مع مرور الايام ، لون طوب السجن .
يتقدم « الصول » أمين منه :
ــ تمام يا جناب الباشا .
ويتقدم « جناب باشا » من الطابور ، طويلا ممتلئاً ، عريض الكتفين ، أشقر الشعر ، بعينين زرقاوين ــ للجلادين أيضاً عيون زرقاء ــ .
يستعرضنا ــ حمزة البسيوني ــ . يفحصنا بعينيه ، كأنه يشمنا . يتوقف

عند صهباء البربري ويصيح :
ــ ماذا تفعلين ... بينهم ...؟
ــ اسأل الذين اعتقلوني .
ــ انني لا احتفظ بنساء في السجن الحربي ...؟
ولكنه احتفظ بصهباء البربري اربعة اشهر في زنزانة انفرادية .
ــ انتباه ...

وننتبه. ننظر الى الامام. وما يزال طابور الجنود يدور، والاحذية ما زالت تتدلى من رقابهم ، ونفاجيء بوجود حديقة كبيرة في مواجهه مكتب حمزة البسيوني .

لماذا يحتاج هذا الجلاد الى حديقة ــ وسط هذه السلخانة ــ ...؛ ولكنها كانت حديقة بلا عصافير . فالحداة وحدها هي التي تحلق في فضاء السجن الحربي . في وقت توزيع التعيين ــ عشاء المسجونين ــ ويحمل السجانون جرادل اللحم ، تنقض الحداة ، تلقم قطعة لحم من الجردل وترتفع بها . ولا يتحرك السجان :
ــ انها تتناول عشاءها هي الاخرى .
صورة ستظل ملتصقة ابدا في عيوننا .

* * *

احد المعتقلين الشيوعيين كان من المجندين المصريين في الجيش ــ كانوا قد ضربوه على رأسه حتى شقوه ــ . فراحوا يعالجونه بصبغ جرح رأسه « بالميكروكروم الاحمر » فقط ولا يربطون الجرح .
ــ ولماذا الشاش ...؟

أجل ولماذا الشاش ، مرة كان المتطوع عائدا الى العنبر مع سجانه ، جرح رأسه مفتوح ، الميكروكروم الاحمر ... يصبغ رأسه ، انقضت حداة ، فوق رأس المعتقل ، ضربته بمنقارها وارتفعت ، ورفع السجان كرباجه تحية لها .
ــ قدم لهم عشاء جيداً يا « امين » . انهم ضيوف .

وكانوا قد اعدوا لنا ، مائدة تليق بضيوف فلسطينيين . فما ان دخلنا بوابة العنبر ــ الذي خصص لنا ــ واغلق الباب الحديد وراءنا حتى بدأت حفلة العشاء ...؟

إنهال السجانون فوق رؤوسنا بالكرابيج ، وعلى رأسهم « الصول امين » . هاجت الكلبتان جولدا وعنايات ، من صوت الكرابيج المختلطة بصرخاتنا ، وجن الكلب لاكي .

قعدنا فوق ركبنا على الارض ، راس كل واحد منا بين يديه ، وعليه أن لا يرفع عينيه أبداً عن حذائه . خلع كل واحد منا حذاءه ، ووضعه بين ركبتيه ، وعليك أن لا تلتفت الى الوراء أو الى اليمين أو الى اليسار .

★ ★ ★

ماكينة حلاقة في يد السجان حلقت آلاف الرؤوس قبلنا ، قد حفيت أمواسها تماماً ، فكانت تقتلع شعرنا خصلا خصلا . . . وتمزق جلود رؤوسنا . الماكينة في راسك ، والكرباج فوق ظهرك ، والدم يسيل من جلد راسك . . . وفوق عينيك ، ولا تستطيع رفع يدك ، حتى لمسح دمك عن وجهك .

بعد عملية سلخ الراس ، يتقدم كل معتقل من طاولة خشبية وراءها سجان ــ يعرف الكتابة والقراءة ــ ربما علموه الابجدية لهذا الغرض فقط .

ــ ضع كل شيء على الطاولة ، كل شيء .

★ ★ ★

الساعة والخاتم . . . جنيها أو اثنين ، من كان معه منديلا ، وضع أشياءه فيه ، ومن لم يكن يملك منديلا كومها فوق الطاولة .

وتبدأ عملية الاستجواب :

ــ اسمك .

ــ خ . ش .

ويسقط الكرباج فوق وجهه :

ــ قول افندم يا ابن الكلب .

وبعد أن تقول اسمك وبعدها كلمة « افندم » ، يسقط كرباج آخر .

ــ بتشتغل ايه . . .؟

● مدرس يا « افندم » .

وترتفع صرخة السجان :

ــ مدرس . . .؟ يعني شيوعي يا ابن الكلب .

وتسقط الكرابيج ، وتنقض عليك الكلبة « جولدا » .

★ ★ ★

ينتهي استجواب المعتقل الاول ، فيدفعه ، سجانان ، يرافقهما الكلب لاكي ، يطلب منه أن يركض ، وهما وراءه بالكرباجين وبأنياب الكلب لاكي ، حتى باب زنزانته .

ــ اسمك . وبتشتغل أيه . . .؟

● طالب يا « افندم » .

ــ طالب ... ؟ يعني شيوعي ... يا ابن الكلب ... شيوعي كمان .

ــ اسمك .

● عبد المجيد كحيل يا « افندم » .

ــ بتشتغل ايه ... ؟

● بائع خضار يا « افندم » .

ويقف السجان ، وبكفه المشحوذة كالسكين ، يلطم عبد المجيد كحيل فوق وجهه وهو يصرخ :

ــ بائع خضار يا ابن الكلب . بتعمل ايه بين المدرسين والطلاب ... بتعلمهم الشيوعية ... ؟

وينهال عليه السجانون بكرابيجهم ، حتى يسقط فوق الارض ...

(لابن بائع الخضار ــ عبدالمجيد كحيل ــ ولد يتعلم في جامعة موسكو الآن) .

* * *

هكذا سكنا الدور الثاني والاخير في عنبر « ج » في السجن الحربي . كل معتقل في زنزانة انفرادية . لا يعرف من المعتقل في الزنزانة الى يمينه او الى يساره .

* * *

عرفت بعد عشرة أيام ، ان على يميني كان (خ . ش) وعلى يساري : فريد ابو وردة . لقد رأيت احد السجانين يمسح يده فوق حائط زنزانتي وكانت مصبوغة بدم فريد أبو وردة .

طلبوا منا ، خلع قمصاننا ، ورفع ايدينا ووضعها فوق الحائط .

فور أن يسقط الكرباج فوق ظهرك ، يقفز الكلب لاكي ، حتى يصل الى كتفيك .. ويعضك .. في الكرباج الثاني يعضك من ظهرك .. وفي الكرباج الثالث من ساقيك . دربوه على العض دون أن تسيل قطرة من الدم . يمتلىء جسد المعتقل بالانياب ، فلا يستطيع النوم ، وهذا هو المطلوب تماماً .

تقف في زاوية من الزنزانة ، لقد طلب منك السجان ان تظل واقفا . يغلق الباب ، لكي تصل اليك الصرخات من الزنازين الاخرى ، مختلطة بعواء الجوقة : لاكي وجولدا وعنايات .

الزنزانة خالية تماماً . كل الاثاث ، هو جردل البول ، وبلا غطاء . اثاث

* * *

الزنزانة هو المعتقل نفسه .

من ناظور الزنزانة ، يطل السجان ويصرخ :

ــ انت واقف يا ابن الكلب . اقعد .

تقعـد .

ــ انت قاعد يا ابن الكلب . قف .

تقف .

ــ انت نايم يا ابن الكلب . اصح .

وتصحو .

ــ انت صاحي يا ابن الكلب . نم .

تنـام .

هكذا تقف وتقعد . تقعد وتقف . تغمض عينيك وتصحو ، وتغمض عينيك حتى الخامسة صباحا . حينما يفتح السجان باب الزنزانة قليلا، فتمد يدك وتتناول « القروانة » . وفوقها رغيف ، ويغلق باب الزنزانة .

★ ★ ★

تلتهم الرغيف وحبات الفول المسوس ، وتحس بالعطش ... ولكن كوب الماء ياتي بعد ساعتين ، او ثلاث ساعات او لا ياتي على حسب مزاج السجان .

★ ★ ★

رائحة البول تملأ الزنزانة . تريد ان تفعل شيئا ، فتبدأ في استكشاف جدران الزنزانة وبابها الحديدي . هذه هي جزيرة الفلسطيني : لربع شجرات من الطوب الاصفر المدهونة بالشيد الابيض ، والسماء هي باب الحديد .

بعض الاسماء فوق الجدران ، بعض صور الطيور والمراكب وتواريخ الدخول الى السجن الحربي . تفتش في الحيطان الاربعة على تاريخ خروج واحد ، فلا تجد .

انك في السجن الحربي .

في اليوم السابع ، سمحوا لنا باخراج جردل البول . كان قد امتلأ ، ولم نعد نستطيع النوم من التعذيب المتواصل ومن رائحة البول .

★ ★ ★

عرفنا فيما بعد ، ان اخراج جردل البول ، وتقديم الماء لنا ، ثلاثة اكواب كل يوم . كان بفضل فلسطينيين من قطاع غزة : الحاج محمد ابو دقة ــ كان تاجر

حشيش وتاب . وارغمه بعض ضباط المباحث والمخابرات على العودة الى مهنته القديمة ، وحينما رفض ـ اعتقلوه ـ . والثاني كان : محمود أبو حصيرة ـ رئيس ميناء غزة ـ اكتشف تلاعب المباحث وبعض ضباط الادارة وبعض التجار بأوراق الجمرك ، وعمليات التهريب ، ولما تكلم ، اعتقلوه هو الآخر .

لقد دفع الاثنان لحرس السجن ولضابط العنبر ولحمزة البسيوني مبالغ كبيرة ، لكي يوقفوا عملية التعذيب ، ويرفعوا عنا الكرابيج والكلاب .

بعد الدفع خف الضرب قليلا . وصار الماء يجيئنا كوباً مع الغذاء ، وكوباً آخر عند العشاء . ولكن الضرب يشتد ، حينما كان ضابط العنبر ، يقوم بزيارتنا ، وكان على الحاج محمد أبو دقة ، ومحمود ابو حصيرة ، أن يدفعا الكثير للضابط ، لكي يغض النظر عن تعذيبنا ولو لأيام .

لقد بلغ بعضنا حافة الموت . أكثر من اسبوعين متواصلين من التجويع واليقظة الدائمة والتعذيب .

« بنيامين » يهودي ، هرب من اسرائيل ، ولجأ الى مصر ، فاعتقلته المخابرات ، ووضعته في السجن الحربي .

قال لي :

ـ انه كان يريد ان يرى « الاهرام » ، و « ابو الهول » فاذا به يرى كيف يعذب الفلسطينيون حتى الموت .

كان بنيامين يوزع علينا الماء .

ـ اشرب .

وحتى آخر قطرة ، تشرب كوب الماء ... تقدم له الكوب بامتنان ، ويرفض ان تقول له « أفندم » .

ـ انني معتقل مثلكم .

ويقدم كوباً آخر من الماء وهو يقول :

ـ رش وجهك ...

وترش وجهك بالماء ، لأول مرة منذ اسبوعين .

ويخرج بنيامين من جيبه سيجارة ، ويشعلها ويقدمها لي :

ـ دخن ...

رائحة دخان السيجارة ملء الهواء ... ويغلق الباب ـ العبور العظيم ـ تريد أن تحمي من الهواء طرفها المشتعل ، حتى برموش عينيك ، بعد اسبوعين تدخل هذه العروس زنزانتك ، العروس ذات التاج من النار . ولكن بعد النفس الاول ، تحس بأن كل شيء يدور حولك . الحيطان والباب وجسدك اخذ ينتفض ،

تمسك بالحائط ، وتجلس في ركن الزنزانة ، تلفك سحابة ، الغيبوبة اللذيذة . . . التي تجعلك تعيش خارج الزنزانة . . . تحبس بنشوة عارمة . . . كأنك تضع كل البرق في كأسك وتشربه ، كما يقول العزيز « بابلو نيرودا » .

* * *

سمحوا لنا اخيراً وفي اليوم الثلاثين ، من وجودنا في السجن الحربي ، بأن نحمل جرادل البول ونذهب للمراحيض . نفرغ الجرادل ونغسلها . . .

كانت المسافة اقل من عشرين متراً ، بين الزنازين ودورة المياه ، ولكننا صرنا نمشي .

في السجن الحربي عليك أن تنسى قدميك ويديك وعينيك واسمك . فأنت رقم الزنزانة التي تسكنها .

ــ تتذكر .

كان يوم اعتقالنا هو آخر يوم لالغاء العملة المصرية من فئة الخمسين والمائة جنيه ، ومع شرطة المباحث كانت أوراق بنكنوت المخابرات والمباحث والتجار .

* * *

ضابط مصري ـ حارب في بورسعيد ، وحينما لم يعد لديه ذخيرة راح يوزع المنشورات ، واعتقلوه . ما دام ضابطاً يعرف قيمة المنشورات ، فلا بد أن يكون شيوعياً . . . دائماً ترتبط الشيوعية بالنسبة لهم « بالورق » وهكذا اعتقلوه . وحينما عرف بوجودنا ، طلب زيارتنا ، ووافق الحرس والصول (أمين) . « فمنير موافي » ـ الضابط المصري ، هو ضابط ، رغم انه معتقل .

شكراً للبيروقراطية . . .

« منير موافي » ، أحضر معه : « الهاً عجيباً » ، حينما جاء لزيارتنا : راديو ترانزستور .

واجتمعنا في زنزانة : خليل عويضة .

صوت أحمد سعيد يرتفع :

ــ معتقلون فلسطينيون في مصر . . . يا اذاعة ١٤ تموز ١٩٥٨ ؟ يا اذاعة عبد الكريم قاسم . . . اسمعوا أيها العرب . . . اسمعوا . . . مصر تعتقل الفلسطينيين . . . اسمعوا . . . ؟!

* * *

موسيقى حماسية ترتفع . . . وقد يقتنع الملايين من عرب « صوت العرب » بواسطة الموسيقى والاناشيد بأنه لا يوجد معتقل فلسطيني في السجن الحربي ،

الا اننا كنا في زنزانة ، ونعرف جيداً اننا معتقلون .
يصرخ خليل عويضة :
ـ كذاب ... كذاب ... لا بد ان يقدم للمحاكمة ... نحن هنا ...
ولكن من يقدم العواء للمحاكمة يا عزيزي خليل عويضة ...؟

★★★

في اليوم الثامن والثلاثين رأيت الهواء ، رأيته وامسكت به ، رأيت الشمس ، فاخفيت وجهي بين يدي .. لقد طلعت وغابت بعيداً عنا .. لأيام طويلة .
السجان يدفعني امامه لمكتب حمزة البسيوني وهو يقول :
ـ حذار أن ترفع عينيك للشمس دفعة واحدة ...
وضعت في قدمي ، حذائي ... ومضيت ... وبعد ما يقرب من اربعين يوماً ، ينمو شعرك قليلا ... ولكن وجهك ، يصبح لا مأوى له ابدا ... انك تمشي به ، متشرداً ، طول الوقت . وحينما تضعه في حقيبتك ـ تضع وجهك ـ مع القميص والجوارب وبعض الاوراق ـ يقولون :
ـ انك جاسوس او مهرب .
كنت اهرب وجهي دائماً . وبمقاييسهم كنت عميلا . استخدم ـ راديو ترانزستور ـ يقول لي : انني لم اعتقل ابداً ، ولم يطردوا امي وابي واخوتي ، ولم يجروا عروسي للسجن الحربي ...

★★★

بواسطة قريب لوالدة صهباء البربري ، سمحوا لها بزيارتنا ... ولم تكد تعرفنا ... لقد نقص وزننا كثيراً ، منها عرفت أنهم طردوا امي وابي واخوتي . فسافروا الى الاردن . والدي اتصل بها وقال انه سيحضر للقاهرة للبحث عني . لم تكن تعرف في ذلك الوقت اين نحـــن . لم يعترفوا اننا في السجـــن الحربي الا بعد شهرين .

★★★

الفرحة كانت في السجائر التي حملتها معها ، سمح الضابط ، بعد ان اخذت منه والدة صهباء البربري : تليفون بيته وعنوانه ...؟ بأن احمل السجائر الى العنبر ، وفوق السجائر كانت علبة كبريت كاملة ... كنا نقتسم عود الكبريت الى قسمين .

★★★

الزيارة في مكتب ضابط السجن ، جعلت السجان يغير سلوكه معي ...

حينما طلبت منه ، ان يسمح لي بتوزيع السجائر على المعتقلين ، لم يتردد ، وأول زنزانة دخلتها ، كانت زنزانة ــ خليل عويضة ــ لم يدخن منذ ثمانية وثلاثين يوماً .

★ ★ ★

ودخن العنبر في ذلك اليوم . وكان السماح بالتدخين بشارة كبرى .

بعد أيام صار ضابط السجن ينادي ــ خليل عويضة ــ استاذ خليل ــ واستاذ فريد .

ولم تقترب منا الكلاب بعد ذلك .

البعض خيل اليهم انهم سيطلقون سراحنا ...؟ وما أسرع ما جاءت الدفعة الثانية من المعتقلين من قطاع غزة . شرطة المباحث والمخابرات اصبحت تنام في آذان الناس .

★ ★ ★

... وزارني ابي اخيراً ، ورغم الكارثة التي حلت ، فلقد كان هو ... هو ــ المشرد العظيم ــ الواقف ابداً ــ وغير القابل للسقوط .

حدثني ، كيف طلبوا منهم مغادرة الكويت فوراً ، وفي اول طائرة :

ــ ولكن الى اين ...؟

● هذا شأنك انت ...

ولم يكونوا يملكون غير وثائق سفر صادرة من القطاع ، وقد انتهت مدتها .. لا بأس ، وضعوهم في الطائرة ...

ــ اسرة باكملها ــ بلا نقود وبلا جوازات سفر ــ منعوها من العودة لقطاع غزة ... وهكذا وجدوا انفسهم في مطار قلنديا .

لحسن حظهم ، أن مطرودين أردنيين وفلسطينيين ، كانوا معهم على الطائرة نفسها ، معتقلين شيوعيين ووطنيين ، فالتفوا حول تلك الاسرة . فليرصع الندى دائماً اسماءهم .

ــ طلبوا مني مغادرة القاهرة فوراً . سبعة ايام حتى سمحوا لي بزيارة واحدة لك ولمدة نصف ساعة . لا تهتم .. سوف أسافر بالباخرة من الاسكندرية الى بيروت ، هناك امك واخوتك .. ليست المرة الاولى التي نطرد فيها .

★ ★ ★

يلتف حولك المعتقلون ، ويسألونك عن اخبار غزة ، فتحدثهم عن اخبار المطرودين من الكويت . ولكننا كنا ندخن ، ومسموح لنا ببعض الزيارات ، والكلب « لاكي » أصبح يألفنا ، والكلبة « عنايات » حبلى .

وسمحوا لي بزيارة — صهباء البربري — في العنبر الآخر . كنا في بعض الاحيان نتناول طعام الغداء معاً .

حولنا زنزانة الى مطبخ ، وكان عبد المجيد كحيل — طباخ المعتقلين — كانت لنا جميعاً « حياة عامة » .كل الحوالات المالية والسجائر توزع على الجميع .

★ ★ ★

— اننا نشتري حياتنا بالمال .

هكذا كان يقول لنا الحاج — محمد ابو دقة — الذي كان يدفع الكثير ، ولا يطلب منا الا القليل . عن طريق معتقل فلسطيني عادي مشبوه اسمه — ابو احمد — كان يزيد أن يبتزنا هو الآخر ، انتقلت أخبارنا في السجن الحربي الى المباحث والمخابرات في غزة . فطالبوا بنقلنا من السجن الحربي . اعترف — جناب الباشا — « حمزة البسيوني » فيما بعد ، للحاج محمد ابو دقة ، أن في غزة ، اطلقت يده تماماً بالنسبة لنا — اباحتنا له — وانه ببساطة كان مشغولاً بأشياء أخرى ، فنسينا ، وحينما تذكرنا ، فات الوقت .

★ ★ ★

السجان ، أصبح يحمل رسائلي الى صهباء البربري . والسجان دائماً — هو بوسطجي — السجين .

— رسالة من الزجاجة .

وأعرف أنها من صهباء البربري ، كان السجان يسمي المرأة زجاجة .

— زجاجة ماذا . . .؟

ويقول وهو يضحك :

— زجاجة ياسمين .

★ ★ ★

ولكن بعد اربعة اشهر ، قاموا بترحيل « الزجاجة » الى سجن النساء في القناطر الخيرية ، حيث كانت هناك : الرسامة انجي افلاطون ؛ والممثلة محسنة توفيق ، وفاطمة زكي ، ثريا ابراهيم ، ثريا ادهم ، ثريا حبشي ، سعاد بطرس ، اميمة ابو النصر ، انتصار خطاب وأخريات .

والى القلب وجه فخري مكي نصل السكين .

ذات يوم جاء السجان ، الى حجرة — خليل عويضة — وفي يده رسالة ، وقال :

— أين فخري مكي . . .؟

خليل عويضة كان قد طرده من زنزانته ، لسوء سلوكه . سألته لماذا يسأل عنه . . . ؟ ضحك وقال :

ـــ قال لي حضرة الضابط ، ان اعيد له هذه الرسالة واقول له :

ـــ بلها واشرب ماءها .

وفتحت الرسالة وقرأتها ... وسقطت فوق السرير ، في حجرة خليل عويضة . كنت أسمي سريره : عرش لومومبا .

وناولته الرسالة المشؤومة .

كانت موجهة من فخري مكي ، الى منير الريس ، وهو يعلن له في الرسالة ، انه على استعداد ليعلن براءته من الشيوعية ولكن حينما يفرج عنه ويصل غزة ، فهو يخاف منا ـــ اي من المعتقلين ـــ لو استنكر الشيوعية في السجن الحربي .

★ ★ ★

جمعت قيادة الحزب في زنزانة، وقرات عليهم رسالة فخري مكي لمنير الريس، فصدر القرار بطرده من الحزب .

★ ★ ★

تم ترحيلنا من السجن الحربي ، الى معتقل الواحات الخارجة ، في النصف الثاني من عام ١٩٦٠ . حينما جمعونا في ساحة السجن ، ظن بعض المعتقلين ، انه الافراج .

نمر هنية ، حينما رأى الحرس بثيابهم السوداء أمام عربات اللوري في ساحة السجن الحربي قال :

ـــ هذه الغربان ، لن تقودنا الى غزة .

وبالفعل فهذه الغربان ، لم تقدنا لغزة ، ولكن الى معتقل الواحات الخارجة.

★ ★ ★

في عربة القطار ، لا ادري كيف داهمتني، قصة « هوارد فاست » ـــ سيلاس تمبرمان ـــ فرحت احكيها للرفاق .

كان استاذاً جامعياً ، ورفض خلال ـــ حملة مكارثي ـــ أن يخضع لتعليمات المكارثيين . طفله الوحيد كان ينتظره وراء نافذة ، وقد الصق وجهه بزجاجها . ويرفع أحد المكارثيين يده بحجر ، ويضرب وجه الطفل . . . خلف الزجاج . . . ويمتلىء وجه الطفل بشظايا الزجاج ، ويمتلىء فمه ، وتمتلىء عيناه . . . ويمتلىء وجهه بالدم .

انهم يجعلونك تحب الشيوعية اكثر . والتي تكلف كل هذا الثمـــن الباهظ من التضحية .

ــ جملة واحدة وتخرج . قل انك لست شيوعياً . قلها ، أو اكتبها ، لا فرق .

وماذا يضير الذي يقول انه ليس شيوعياً ، أن يكتب هذه الجملة ؛ ما الفرق بين الهواء والورق ، حينما يتم استنكار الشيوعية ؟

★ ★ ★

في مايو ١٩٦٠ خرجت من السجن الحربي الدفعة الاولى ، كانوا اربعة ، وخرجت ــ صهباء البربري ــ من سجن القناطر الخيرية ــ بعـــد ان أمضت ١٣ شهراً ــ .

وبعد ثلاثة اشهر ــ في اغسطس ١٩٦٠ ــ ، تم ترحيلنا من السجن الحربي الى سجن الواحات .

الدفتر الثامن

ـــ كل شجرة وضعوا المنشار فوق كعبها ، تصيح وهي تهوي كذراع نهر :
ـــ الورق قادم فاكتبوا .

وكالشجر الذي يرمونه في النهر فيمشي معــــه ، كل شجرة قد التصقت بالاخرى ، كان الماء قد تحول الى صمغ ، رمونا في اكسبريس الصعيد من محطة الجيزة الي اسيوط ـــ وقد التصق الواحد منا بالآخر . الدم قد تحول الى صمغ ، وتحجر فوق الكلبشات .

كان صفير القطار يخرج من رقابنا ، ولكننا صرنا نرى الارض التي لا تحد . والناس الذين كانوا يمشون .

★ ★ ★

خلف نافذة القطار ، يوجد عالم يمشي ، وها نحن نرى بقرة بعد اكثر من عام ، ويظهر حمار ، يرفع رأسه وينهق في وجه القطار ، الذي راح ينهق هو الآخر .
ـــ تسقط الشيوعية .

تتذكر ذلك الصوت المشؤوم . انه لا يزال معلقا في الهواء . هناك من يهتف

وقد ارتدى عنقه جوربا .

الرفيق محمد الشامي يتمتم وهو ينظر الى الكلبش في يده ، والمشدود الى يد رفيقه :

ـــ اننا نبتعد كثيرا عن غزة .

تلال من الضباب تمتد أمامنا ، تتناثر فوقها حجارة مدورة .

ـــ هذا هو وادي البطيخ ؟

ويشيح أحد السجانين بوجهه ، وقد راح يتحسس راسه .

كان كل حجر يشبه البطيخة . اية ريح دورت كل هذه الحجارة فوق تلك التلال ، كانت السماء بيضاء شاحبة ومغبرة بنقط سوداء : الغربان .

من محطة اسيوط الى محطة المواصلة ، ثم الى محطة المحاريق ومنها الى بوابة معتقل الواحات .

على جانبي الطريق ، ارض لم يمش فيها جذر ، لم تظهر فيها شجرة ـــ حتى كمعجزة ـــ ارض لو القيت فوقها وردة ، لاغمي على الهواء . فوق تلك الارض كانت الغربان تقوم بدوريات منتظمة .

في ساحة سجن الواحات ، مجموعات من الشيوعيين المصريين ، وشجيرات زهرة عباد الشمس باعناقها الطويلة المرصعة بالتيجان الصفراء ، لقد زرع الشيوعيون المصريون : زهرة الشمس .

الاسم من جديد والمهنه ... الخ ولكن بلا كرابيج ، فلقد سقط « شهدي عطية » ، و « فريد حداد » ، و « محمد عثمان » ، و « رشدي خليل » ، و « مصطفى شوقي البهنساوي » ، دفاعا عن اسمائنا جميعا ، هذه الاجراس التي ستظل تدق في رقابنا ، تحمل صوت الشيوعية .

★ ★ ★

طواقي من الكتان لها رفرف ، لا يهم واسعة او ضيقة . وقمصان ايضا من الكتان ، بعضها [illegible] واحد ، وسراويل ، معظمها مثقوب عند الركبتين ، وهكذا التقوا بنا في زنزانة [illegible] في زنازين مشتركة مع الشيوعيين المصريين ، ولكن ادارة [illegible] .

ـــ [illegible]

★ ★ ☆

تركنا الرفاق المصريين عام ١٩٥٥ في سجن القناطر ، وهم الحزب الشيوعي المصري الموحد ، وها نحن نلقاهم الان وهم : الحزب الشيوعي المصري .

الشيوعيون المصريون يأتون الينا : الرسام ــ زهدي ــ هو هو بصوته المبحوح، وعينيه الحادتين اللتين ترفرفان عليك بحنان كل الالوان. ــ احمد طه ــ كان لا يكاد يرى من فرط الهزال ــ محمد علي عامر ــ هذا العامل الذي سيأتي ملكوته . داوود عزيز . عدلي جرجس ، طاهر عبد الحكيم . عبد المنعم شتلة ، زكي مراد ، الدكتور فوزي منصور . محمد عطا الله ، لويس اسحق . . . ونخلات كثيرة اخرى .

كانوا يأتون الى الامية ، وكنا ممثلي الامية ــ فقد كنا الشيوعيين الاجانب الوحيدين في معتقل الواحات الخارجة .

ــ انني احييكم باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري . اسمي فخري لبيب .

كان كالرمح . اعطاني قلبه منذ أن صافحني .

فتحت الزنازين ، ودخل الرفاق المصريون ، يحملون هداياهم : اقداح الشاي وعلب السجائر . . . كانوا يصغون لما حدث لنا في قطاع غزة ، وفي السجن الحربي وهم ينتفضون . هم الذين واجهوا في « ابو زعبل » ، مسؤولية الموت الجماعي .

ــ الحزب لا يزال يعمل في الخارج ، رغم كل تلك الغارات التي انتهت باعتقال المئات من كوادر الحزب .

الهواء في الواحات . . يشارك في نحت الوجوه ، واشعة الشمس المسنونة، التي حينما تسقط فوق رأسك تكاد تحز عنقك ، تقوم بعملية الرتوش الاخيرة . . .

ويلخص لي ــ فخري لبيب ــ معتقل الواحات الخارجة في جملة واحدة :

ــ نحن هنا للموت ، ويجب ان لا نموت .

كان علينا في معتقل الواحات الخارجة ، أن نتعلم الكثير من النخلة . . . وان نظل نورق دائماً أو نهلك .

يمضي فخري لبيب :

ــ هنا نسمي البصلة : دجاجة ، فماذا نسمي الدجاجة . . .؟ اننا نقاتل من اجل حبة اسبرين . معظم الرفاق مصابون بالدوسنطاريا ، وسوء التغذية لا يحتاج الى تقرير طبي. الرغيف قرص من الهواء المعجون بالغبار . . . يوجد بعض الاطباء من المعتقلين بيننا ، ولكن ماذا يفعلون بلا صيدلية . . .؟

(هؤلاء الاطباء الشيوعيون المصريون المعتقلون وعلى راسهم عبد المنعم عبيد ، لا بد وان يكتب واحد منهم ، تجربته كطبيب في معتقل الواحات الخارجة ، لعل بعض الاطباء الشيوعيين ، هنا او هناك ، في هذا الحزب الشيوعي ، أو ذاك، يطالبون باقامة يوم واحد ، للاحتفال بمجد الاطباء الشيوعيين المصريين في سجن

الواحات الخارجة) . . طبيب منهم . انقذ الاولاد الثلاثة لمأمور سجن الواحات من التسمم وهو حافي البدين .

يمضي فخري لبيب :

— استاذ مرموق في جامعة القاهرة . يرسله حسن المصيلحي — المستشار الاول لمكافحة الشيوعية — الى سجن الواحات . بعد تهديده بالطرد من الجامعة ، لكي يسقط فوق قدمي ولده الحافيتين في مكتب مأمور السجن يقبلهما ويناشده ان يستنكر الشيوعية . . . ؟

— كيف يمكن لذلك الاستاذ الجامعي ان يعلم الطلاب . بعد هذا ؟ حينما سقط راس ذلك الاب — استاذ الجامعة — فوق قدمي ولده — سقط الكتاب من يده .

رفض الابن المعتقل أن يستنكر الشيوعية . ولم يذهب الاب ، بعد ذلك الى الجامعة . ولم يفتح كتاباً ولا جريدة . ولم يمسك قلماً . . . حتى مات .

(مرة ثانية . لعل ابا واحدا من آباء المعتقلين الشيوعيين المصريين يكتب شيئا ما تجربته كأب في مرحلة معتقل الواحات الخارجة . لعل بعض الآباء ؛ من اساتذة الجامعات في هذا الحزب الشيوعي أو ذاك ، يشربون ذات يوم ، نخب كتابين . مطرودين من كل المطابع . هما القدمان العاريتان لمعتقل شيوعي مصري وفلسطيني في سجن الواحات الخارجة) .

يمضي فخري لبيب :

— هل تتصور أن شعار نضالنا اليومي . . ؟ هو ان نمثل في مطبخ السجن . . ؟ وان يكون هناك مندوبون عن الحزب الشيوعي المصري في المطبخ . . . ؟

الاخوان المسلمون في معتقل الواحات . كانوا يسكنون وحدهم في عنبر آخر . وكان مطلوبا منهم هم الآخرون . ان يستنكروا . . . ولكن ماذا . . . ؟

حينما كنا نعجن الطين باقدامنا وايدينا . وبنينا في ساحة السجن ، عتبة مسرح . لم يفهموا ابدا ما الذي كنا نفعله .

★ ★ ★

— واس . . واس . . واس . .

عبد الستار الطويلة . يعلن عن نشرة : وكالة انباء السجن .

كان كابن آوى . يلوح بقصاصة جريدة . عثر عليها في الرمل . طارت من يد ضابط في السجن . تاريخها يرجع لثلاثة اشهر .

لا ادري لماذا أتصوره الآن — كالمواطن — توم بين — حينما مات ، يمشي وراء تابوته احد رجال الكويكرز . وفوق التابوت ، كان يرفرف غراب . . .

هوارد فاست . كان يكتب نهاية مدير وكالة انباء السجن ، في الواحات

الخارجة : عبد الستار الطويلة .

يمضي فخري لبيب :

— وها نحن الآن نواجه سوء التغذية . والدوسنطاريا . والغبار الذي فيه بعض الهواء . . . والعقارب التي تظهر في الليل . كالملائكة . وتلدغ ايدي الرفاق . ونواجه الانقسام أيضا . .

ويكمل طاهر عبد الحكيم :

— انظر . نحـــن نمشي باقدام عارية . في حقل مـــن الثعابين . . . ويأتي الانقساميون . ونفقر ثعابين جديدة من بين أصابع أيديهم واقدامهم .

★ ★ ★

بعيدون تماما عن غزة . . . معتقلون في الواحات الخارجة — فنحن الاممية الوحيدة — ونعرر :

— مع جريدة الهواء . مع جريدة الحزب الشيوعي المصري .

كنا نصحو عند الخامسة صباحا . على صيحة الرفيق « لمعي يوسف » :

— طابور العمل يا زملا . . .

لمعي يوسف . كان مسؤول طابور العمل . كل معتقل يلف رغيفه وبصلة — لو كان محظوظا — وصرة ملح في منديله ويمضي لطابور العمل .

كنا نصطف في ساحة السجن . جاويش العنبر يقوم بعملية التمام مع بعض الحرس . دائما هناك من يريد أن يتغيب . وكانت مشكلة لمعي يوسف اليومية .

ينطلق الطابور . الحافي في صفوف ثلاثية او رباعية . للعمل في ارض جرداء تبعد كيلومترا عن السجن وهناك تبدأ الفؤوس ترتفع . مجموعة من الرفاق تقتلع الشوك — فاكهة الغربان — ومجموعة اخرى تحاول ترقيع الطريق الترابي . الرفاق الآخرون . يشكلون حلقات للمناقشة والدراسة .

كانت بعض الجرائد والمجلات الاجنبية والمصرية . قد اخذت تتسلل الى السجن . عن طريق السجانين وبعض الرسائل من اهالي المعتقلين . السجان في معتقل الواحات . كالسجين تماما . والتعاون مفروض علـــى الاثنين . كان السجان يأخذ نسبه من اي مبلغ يهربه للسجين من عائلته في الخارج ولكنه كان يقوم بمهمة كبيرة .

بدأت الرسائل تحمل أخبار زوجات وخطيبات المعتقلين المصريين . لأول مرة يحدث في التاريخ السياسي لمصر . أن اجهزة المباحث العامة . راحت تحرض الزوجات والخطيبات والامهات ضد المعتقلين المصريين .

ــ انهم هم الذين يرفضون الخروج ! ماذا نفعل ...؟ هل نخرجهم بالقوة من بوابة سجن الواحات ...؟

ويضيف ضابط المباحث للام او الزوجة او الخطيبة او الاب :

ــ كل الذي نطلبه ورقة صغيرة ـ فوقها جملة واحدة :

ــ أعلن براءتي من الشيوعية ...؟

* * *

بدات الرسائل الغريبة تجيء الى سجن الواحات عن طريق ادارة السجن ، رسائل من بعض الزوجات يهددن ازواجهن المعتقلين بالطلاق ، ورسائل من هذه الخطيبة او تلك ـ تعلن فيها تحت تهديد جهاز المباحث وضغطه ، بانها مهددة بالطرد من وظيفتها ـ وانها قد انتظرت طويلا .

كان الحزب يحارب على كل الجبهات ــ هذا الجندي المجهول ــ ، ولكنه انتصر على « حرب الرسائل » التي راحت تشنها اجهزة المباحث .

وصمدت الغالبية الساحقة من زوجات المعتقلين المصريين ومن خطيباتهم ، صمدن رغم الجوع والارهاب ـ بل ان اكثر من خطيبة القت بخاتم الخطوبة في وجه الخطيب المرتد .. وانتصر الحزب الحاني ، على الكعب الحديدية لحسن المصيلحي ــ المستشار فوق العادة لمكافحة الشيوعية ــ .

بعد « حرب الرسائل » ـ استخدم حسن المصيلحي ـ اسلوبا آخر ، هو ترحيل مجموعات من المعتقلين ـ خارج سجن الواحات ، ستكون فرصة الصيد اكبر .

وهكذا انتقلت مجموعة من المعتقلين المصريين ، الى سجن الفيوم تضم ٧٤ معتقلا ـ وكان من بينهم الرفيق « نبيل زكي » ، فكلفه الحزب بقيادة هذه المجموعة .

بعد عدة اشهر في سجن الفيوم ـ من تهديد اجهزة المباحث واغرائها فشلت حرب سجن الفيوم . كانوا يحضرون الزوجة ، يطلبون منها مفتاح البيت ، ويفتحون زنزانة المعتقل ـ يصحبون به لمكتب مامور السجن ، يجلسونه وراء طاولة ـ فوقها ورقة وقلم ومفتاح بيته .

ــ اكتب وخذ مفتاح بيتك واسكن خارج السجن ، ان زوجتك واطفالك في انتظارك .

وما اكثر المفاتيح التي تركها الشيوعيون المصريون والفلسطينيون وراءهم .. اما الورقة البيضاء فقد تحولت الى عرائض احتجاج .

وهكذا احتفلنا في سجن الواحات باستقبال الرفاق المصريين والفلسطينيين العائدين من سجن الفيوم .

★ ★ ★

في جلسة خاصة ضمت المسؤول السياسي : الرفيق فخري لبيب وبعض الرفاق المصريين ، اعلن الرفيق عبد الرحمن عوض الله ادانته لعمله الانقسامي . وعاد لحزبنا هو والرفيق عمر عوض الله ــ أصبح فيما بعد المسؤول العسكري للحزب ــ وسقط شهيداً في زنزانته في سجن عسقلان عام ١٩٧٤ .

★ ★ ★

في الليل ، يطوف سجان العنبر على الزنازين . انه يريد أن يسهر هو الآخر . نحييه زنزانة بكوب شاي ، وزنزانة أخرى بسيجارة ، ويطوف السجان يوصل جريدة أو كتابا . او كوب شاي مـــن زنزانة لأخرى : السجانون المشاغبون والمغضوب عليهم ، كانوا يرسلونهم الى الواحات ــ هؤلاء السجانون المشاغبون ــ المعتقلون ــ بعضهم كان يتعاطف معنا الى اقصى حد .

في السجن ، اليد هي التي تقنع وليس الفم . ما تفعله يداك اولا ، ثم ما يقوله فمك . والسجانون من فرط ما ادمنوا الحكايات الشعبية ، يحبون الشجاعة . كانوا يحبون السهر بين زنازين الشيوعيين ويستمعون اليهم . ابدا ما راوا طول حياتهم مثل هؤلاء المعتقلين ، الذين يستطيعون الخروج من هذا الجهنم لو كتبوا جملة واحدة ، ويرفضون .

★ ★ ★

ــ فلسطينيون من غزة ...؟ ما الذي جاء بكم الى الواحات الخارجة ...؟ هل أنتم شيوعيون ايضاً ...؟ لماذا لا يعتقلونكم في غزة ...؟

كان مطلب الترحيل الى غزة والاعتقال هناك ، هو مطلب وطني للمعتقلين الفلسطينيين . تقدم له كوب شاي من خلال القضبان ، وتشعل له سيجارة :

ــ رحمة الله عليه ، لم أر سجيناً مثله ، كان فلسطينياً هو الآخر ...

ويمضي صوت السجان :

ــ هذا السجين الفلسطيني ، جاء مع الاخوان المسلمين المصريين ، وسكن معهم ، كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة . كنت مسؤولا عن العنبر ، وفي يوم ، قمت بتفتيش زنزانته ، لم يكن هناك في الزنزانة ، غير البرش ــ فرشة من ليف النخل ــ وفوقها صرة ملابس وبطانية ، وفوق حيطان الزنزانة ، رسم

طيوراً كثيرة ، طيوراً واشجاراً ومراكب ، ولم تكن تصله رسائل ابداً من الخارج ، لا رسائل ولا حوالات مالية ، ولا زيارة من احد .

كان قليل الكلام ، مرض مرة فخاف كثيراً ، رغم ان مرضه لم يكن خطيراً . . . كان يفزعه الموت في السجن ، وان يدفن في رمل الواحات . دائماً كان في داخل عينيه وفمه ويديه .

حينما مرض ، قال لي :

ــ انه ليس قاتلا ولا جاسوساً ولا اخاً مسلماً . تسلل الى بلدته وراء الاسلاك الشائكة مع عشرات المتسللين وامسكت به دورية مصرية عند بيت حانون . حوكم « كجاسوس » ؟ وحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .

تشعل سيجارة اخرى للسجان ويمضي :

ــ حينما مررت عليه في تلك الليلة ، لم اكن اتصور ، ان هذا هو آخر عهدي به . . فعند الظهر ضرب البوق في السجن ، يعلن عن هروب سجين . لا احد يمكن أن يفكر بالهرب من معتقل الواحات . . اين سيمضي . . . ؟ فوق كل هذا الرماد . . الحداة فوق رأسه ، والعقارب تحت قدميه ، وهو بثياب السجن الزرقاء . . وهو فلسطيني لا يعرف تلك المنطقة . . .

اعترف فيما بعد أحد المسجونين : ان السجين الفلسطيني ، كان يبيع رغيفين كل يوم لمدة شهرين ــ تعيين السجين ثلاثة أرغفة في اليوم ــ واشترى حذاء من سجين . .

وبدات المطاردة . . واصبح السجن في حالة طوارىء . . .

وجاء الليل ولم يعد المطاردون بالسجين الفلسطيني الهارب ــ اول هارب من سجن الواحات ــ واستمرت المطاردة اربعة ايام ، وعثروا عليه اخيراً ، بين الشوك في عصر اليوم الخامس ، لقد نهشته الطيور الجارحة حتى العظم . . . وكان الى جانبه صرة نقرتها الغربان ، فيها بقايا رغيف ، والى جانبه كان غراباً مكسور الرقبة . . . يبدو انه كان يقاوم حتى آخر لحظة . . . بعد أن غربته الشمس وسقط . . . وعادوا به في كيس وبعد كتابة المحضر ، دفنوا الكيس في الرمال .

تكاد اصابع كفيك تنغرس في حائط الزنزانة :

ــ لو كان معه بندقية . . .

ــ ماذا تقول . . . ؟

ــ لا شيء يا جاويش . . .

وتسقط فوق البرش :ــ

ــ اجل لو كانت معه بندقية . لما اكلته الطيور . . .

★ ★ ★

لا بد وان نفكر بشيء آخر . . . نتذكر الطفل الذي كنته ذات يوم يجمع « السنة البحر » من فوق رمال الشاطيء . . . كان البحر يقذف السنته كلما يهيج . . . ويحملها الموج . ويلقي بها فوق الرمال . . . وكنا نمضي نجمعها . كانوا يقولون :

ــ انها بيض الاسماك . . .

وكنا نفرك اسناننا بألسنة البحر . . . كانت تشبه اللسان بالفعل . ولكنها من الكلس السريع الذوبان . اذا بللتها بالماء . وفركت بها اسنانك .

. . . نفرك اسنانك بالسنة البحر . وتمضي تصطاد « السلاطعين » انها تراقبك ، والموجة تغطيها وهي ملتصقة . بالرمل . . . تذهب الموجة : فتتقدم السلاطعين خطوة الى رمال الشاطيء . . . تراقبها أكثر . . . بعد عشر موجات تصبح فوق رمال الشاطيء . السلطعون تقف عيناه حينما يمشي ويفتح كماشته ــ للدفاع ــ هذه النعامة البحرية . في حجم العصفور كنا نمضي لاصطيادها . كان اللحم الابيض . للفقراء . يسلقونها في الماء . ويمصون أرجلها . . . لحمها الابيض يشبه النخاع .

في الصباح تبحث عبثاً عن لسان بحر . أو سلطعون فوق رمال الواحات . .

من زنزانة ترتفع اصوات الرفاق المصريين :

ـــ الحزب الشيوعي المصري . . .

نبنيه بعزيمتنا . . .

انهم يدشنون نشيد الحزب في احتفال سياسي ، أو عيد ميلاد رفيق .

في حفلات عيد الميلاد ، يفتح الرفاق زجاجات « الهوب ـــ هوب » ، ويرفع الرفاق كؤوسهم رغم سقف الزنزانة ويغنون لسيد درويش، و «الهوب ـــ هوب »، مشروب ، اخترعه احد الرفاق :

كنا نخلط العسل الاسود بالماء ، ونصب هذا البرق البني في زجاجة نسد فوهتها بقطعة عجين او فلينة ونرجها ، نلفها بخرقة، وندفنها تحت الرمال الملتهبة. بعض الرفاق كانوا يمتتون زجاجاتهم في الرمال ، لمدة اسبوعين ، ولكن خمسة ايام لزجاجة مدفونة في رمل الواحات المشتعل ، كانت تكفي لكي تتناول كأساً حادة المذاق من « الهوب ـــ هوب » . لا ادري ماذا يعني هذا الاسم . . . ؟

يضحك رفيق :

ــ انه يجعل الرفاق يهبون ...؟

★ ★ ★

بدات محاولات الصعود للقمر ، واحــد المطالب الرئيسية للمعتقلين في الواحات ، هو السماح لهم بارتداء الاحذية ... من فرط اشتعال الرمل ، كنا نلف اقدامنا العارية بالخرق ... او بقصاصات أوراق الجرائد ...

حينما جاء حسن المصيلحي الى سجن الواحات ، يقود شخصياً ــ حملة الردة ــ وكانت اصابع المعتقلين ، تنغرس كالمسامير في وجهه المنقط ــ من آثار الجدري ــ قال المامور سجن الواحات :

ــ أعرف الآن انني كنت حكيماً ، حينما رفضت السماح للشيوعيين بالاحذية ، لو اعطيتهم الاحذية لضربوني بها ...

ولقد ضرب حسن المصيلحي في معتقل الواحات، بالمنجنيق السياسي ، وخرج وقصيدة ــ المرتد ــ تلاحقه ، وكان ذلك في ١٢ فبراير ١٩٦١ .

قام الرفاق بكتابتها بالقلم الكوبية على كل ما يمكن أن يكتب فوقه : ورق السجائر ، علب الكبريت ، قصاصة ورق ، علبة سجائر ، قطعة قماش ، منديل ... حيطان الزنزانة ... واقام الحزب الشيوعــي المصري ، احتفالا خاصاً للقصيدة ، وبعدها ، كنت انتقل من زنزانة لأخرى القيها على الرفاق ...

★ ★ ★

انا ساظل مديناً للرفيق طاهر عبد الحكيم ــ طول عمري ــ لأنه تمكن من الاحتفاظ بها مع بعض وثائق الحزب رغم الغارات البوليسية ، وفي الوقت الذي فقدت فيه الامل بالعثور عليها ، قدمها هدية لي ذلك الرفيق الشجاع .

وقصيدة المرتد ، كانت وثيقة بالفعل ، من وثائق الحزب الشيوعي المصري ــ في وجه حملة الردة ــ كان برنامج المصيلحي ، اخراج المعتقلين زنزانة بعد اخرى ، بدءاً بالطبع بمقابلة الذين سقطوا ، وكان عددهم اقل من اصابع القدمين، احدهم حينما عرف بوجود المصيلحي في مكتب مأمور السجن ، راح يؤذن فى غير وقت الآذان .

وقرر الحزب ، ان يقابل المصيلحي فقط ، لجنــة باسم الحزبين المصري والفلسطيني ، تواجهه بلائحة اتهام الشعبين المصري والفلسطيني .

غير ان بعض المرتدين من الفلسطينيين تسللا الى مكتبه ، وهما : فخري مكي وعطية مقداد .

رفيق رفعلي حتى قضبان نافذة تواجه مكتب مأمور السجن ، حيث كانت

حجرة عمليات المصيلحي ، وينطلق صوتي :
اركع للورقه "
افرس قلمك
في عيني طفلك ، واكتب ما امرك
ان تكتب من ذبحك
بالقلم على عتبة بيتك
كوم ايامك قدامك ، اوراقا واسأل
لا تخجـــل
جلادك عن عود ثقاب
اعجن من وحل دخانك ، ورمادك
صفحات كتاب
اعجن اوراقك وتذكر
لو كان الميت يتذكر
انك من هذي الكلمات تضفر
حبلا ، وتعلق من هذي الاسطر
منفى كذئب قلب حبيبتك ،
وتدمه على طبق من ورق أصفر
تمص ضفائرها لتضمد
جرح الضبـــع الاسود
الدغ كالعقرب عينيها اقدم
لا تحجم .
اقدم واقرع .
كالضفدع
اجراسك للمستنقع

●

وقـــع وقـــع
اسمك في ذيل الورقة وقع
وقـــع وتسلل
كاللص الى بيتك واحذر
ظلك أن يقع على مصنع
فامضغ ظلك منديلا من سم واهرع

اطرق أطرق
بابك حتى تتمزق
يدك فلن تسمع
خطوة من كانت تهواك ويخفق
ساعدها في يدك كسيف من ماس
وكبيرق
فالآن كعود رماد وكخيط دخان أسود
ساعدك تبدد
اقرع إقرع
لن تسمع حطوتها لن تسمع
قد نزعت طوقاً من شوك
خاتمك من الاصبع

●

المهرب اين المهرب
لم تقهر اطفال لينين ولم تغلب
قد كذب المخلب
قد كذبت كل عصي الجلاد فلم تركع
في ابي زعبل
أطفال لينين ولم تهرع
تملأ شبدقي ذئب الفيوم الاصفر
ورقاً من ورد أحمر قد فتح
علماً من ورد أحمر قد فتح
يتحدى سكين المذبح

●

فاغرز عينيك كنابين تطلع
لو تقوى أن تتطلع
انا الملح فوق الرمل الاصفر
قضبان المزة تتكسر
ودمشق بدمية « عمار » دمشق تلوح
لكم ، أطفال القاهرة تلوح

فتطلع ولتتوقــد
في عنقك جمرة جرح اسود
جمرة جرح لا يخمد
فتطلع لو تقوى ان تتطلع ... ان نتصو
قلب « فريد » المصلوب على قلبي نور.
كروانا احمر
قلبي كروان احمر
قلبي حنجرة الاسوار ولن يهدا يصدح
لن يهدا شرر الاغنية يقدح

●

القلم السكران من السم ترنح
عبثا يسنده السجان وتسنده الاسطر
والذكرى موجة شوك تتكسر
فوق جفونك وتؤرق
حتى الصمت ؛ فلا يودا بالحلم
العريانة يطرق
ارض الزنزانة ، والليل على
صدرك باب مغلق

●

سجانك اقبل
كالحفرة كالمعول
اين ستمضي ؟ البيتك ؟
بيتك في ظهرك خنجر
الطفلك ؟ طفلك فوق صليب
الاوراق بدميته سمر
ستساق الى الشارع تتعثر
في ظل السجان تعثر
أين ستمضي والريح تطير
خطواتك اسطر ورقة .

★ ★ ★

في زنزانة أخلاها الرفاق ، وبحضور الرفيق فخري لبيب والرفيق (س. ب) قدمت الرفيق (خ. ص. ع) فأعلن انضمامه لحزبنا .

معتقل يطلب عضوية الحزب ــ الحافي القدمين ــ المصلوبة يده ، والمنفي خارج أرضه ، يجيء لنا في مرحلة دهنوا فيها جسد الحزب بالعسل الاسود ، ربطوه الى عامود ، وأطلقوا عليه طيورهم السوداء والرمادية ، تصطاده وهو مربوط في الجبال .

متى يطلب المناضلون بطاقة الحزب . . . ؟

ــ يطلبونها في عصر العسل الاسود والحداة . وفي مثل معتقل الواحات الخارجـــة . حيث المطلوب منك ــ ومن (ف. أ. و) ــ مائة عام ليده وليد جباليا والنزلة التي كتبت من أجلنا الكثير ــ أن تكتب جملة واحدة وتخرج ، مباركاً من كل الملائكة ، التي ظهرت فجاة ، في ثياب البوليس السري ، تطارد الشيوعيين ، ولكن اجنحتها كانت مليئة بالقمل .

★ ★ ★

ونفتح زجاجة « هوب ــ هوب » ، ونشرب نخب (خ. ص. ع) الذي انضم للحزب الشيوعي في قطاع غزة ، في معتقل الواحات الخارجة .

★ ★ ★

صدر قرار الحزب الشيوعي المصري ــ المشترك مـــع حزبنا ــ باعلان الاضراب المفتوح عن الطعام . تم تقسيم المعتقلين المصريين والفلسطينيين الى ثلاث دفعات ، وتشكلت لجنة لقيادة الاضراب المشترك : فخري لبيب ــ طاهر عبد الحكيم ــ نبيل زكي ــ معين بسيسو .

في الرابع من يوليو ١٩٦١ ، دشن سبعة مـــن الرفاق المصريين سفينة الاضراب ، كانوا قد أنهوا عقوبة السجن ، فخلعوا قمصان السجن الزرقاء ، وارتدوا القمصان الترابية للمعتقل . رفضوا تلويث أصابعهم بالدخان الصاعد من رئتي ــ حسن المصيلحي ــ .

★ ★ ★

منذ شهر كانت ورشة الاعلام الخارجـــي للحزب تعمل لكي يصل اعلان الاضراب الكبير المفتوح الى العالم وخرجت أسلحة رشاشة من المخابيء :

أقلام الكوبية ، ورق لف السجائر ، طاولة الكتابة ، جردل ماء مقلوب .

كان كل ما يربطنا بهواء العالم : بعض الجرائـــد التي كان يهربها بعض

السجانين ، وكانت تكلفنا الكثير ، ولكن الجريدة كانت في اهمية الدواء .

الهواء القادم من اذاعة موسكو ، يصل لنا رغم دوريات الغربان المنتظمة ورغم الحراسة المشددة علـى الهواء ، يحمل صوت الحزب الـذي بناه جدنا ــ لينين ــ . من باريس فوق جريدة الاومانتيه ــ المقاوم الشهيد غبرائيل بيريه ــ يفتح ذراعيه لنا : لستم وحدكم . ومن بيروت ، لم تستطع ــ الصيدلية ــ التي اذابت ــ فرج الله الحلو ــ في البانيو . أن تذيب صوت الحزب الشيوعي اللبناني الذي طبع وجهنا على كفه ومضى يلوح بها للعالم . من بغداد حزب ــ يوسف سلمان ــ وجه وجناح الفلاحين العراقيين كتب : ــ نسيم رئتيه ــ منشورات من أجلنا . فؤاد نصار كنت أراه دائماً في زنزانتي تلب جردل الماء وبالقلم الكوبية ، فوق ورق لف السجائر ، كان يكتب لنا . من زنازين سجن المزة كانت أصوات رفاقنا في الحزب الشيوعي السوري ، ترفرف فوق رؤوسنا ، كطيور النورس ، تبشر الذين اكلوا ثمر شجر الخروع بفاكهة كل شجر الشواطىء .

طائر الرخ ، اصبح عضواً في الحزب الشيوعي المصري ــ الفلسطيني . فحمل رسائلنا والقى بها في صندوق بريد ، كل ما هو جميل ونبيل وشجاع في العالم . وحمل رسائلنا لعائلاتنا في مصر وقطاع غزة .

كان على الرسالة أن تسافر اكثر من ثمانماية كيلومتراً ، لتصل من الواحات الى القاهرة ، واكثر من الف وخمسمائة كيلومترا لتصل الى غزة .

وهكذا اعلنت « الهياكل العظمية » التي يرصعها ندى الشيوعية ، يوم الاضراب ، صباح ٤ يوليو ١٩٦١ .

★ ★ ★

الطبيب المعتقل ــ عبد المنعم عبيد ــ قام بفحص المعتقلين ، قبل اعلان الاضراب ، وكان تقريره عن المعتقلين :

« ــ معدل الانخفاض في الوزن يتراوح بين ١٢ ــ ١٥ كيلوغراماً . الاغلبية مصابة بالانيميا الحادة بالاضافة الى اصابتها بالدوسنطاريا . السل الرئوي : حالات مؤكدة : سعيد عارف ، احمد رضا ، عبد المنعم ناطورة . حالات أخرى : التهاب الكبد الوبائي : اسماعيل عبد الحكيم . سرطان في المعدة : احمد البكار . حالات تهدد بالعمى : فتحي عبد الفتاح .

الذبحة الصدرية ، التسمم البولي ، الحمى الرومانتيزية ، المغص الكلوي ، البقع الجلدية ، طوابع بريد حسن المصيلحي على ظهر وصدر كل معتقل .

كل هؤلاء أعلنوا الاضراب المفتوح ، في ٤ يوليو ١٩٦١ . قبل ١٩ يوماً ، من

٢٣ يوليو ، اعلان الثورة ـــ واعلان قرارات يوليو الاشتراكية .

كل الذين كتبوا عن هذه القرارات ، او يكتبون عنها الآن ، كيف بامكانهم أن يتصوروا من سيقوم بتطبيقها :

حسن المصيلحي كان ما يزال: المستشار الاول لمكافحة الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية . الكلب « لاكي » اصبح له احفاد في السجن الحربي .

الضابط يونس مرعي، لا يزال يحتفظ بعصاه التي قتل بها : « فريد حداد » .

فريد شنشين ، مأمور سجن الواحات ، لا يزال يضع يده على مسدسه ، كلما راى ورقة وقلماً في يد معتقل .

قيادة الطبقة العاملة المصرية حافية القدمين مضروبة بالكرابيج ؛ ومصابة بالسل الرئوي . قيادة الفلاحين مصابة بالدوسنطاريا والذبحة الصدرية . قيادة الثقافة الوطنية ، مصابة بالتسمم البولي وبالقرح المعدية وبالمغص الكلوي .

ورغم ذلك تصدر جريدة « الهواء » الناطقة باسم الحزب الشيوعي المصري، والذي كان يرأس تحريرها أديب ديمتري .

★ ★ ★

الدفتر العاشر

عام يسلمنا لآخر ، وحذاء المعتقل قطعة من قميصه يلف بها قدميه ويواصل المشي فوق الرمال المشتعلة . كان علينا ان نفعل شيئاً ، لكي نلفت انتباه الذين يمشون بأحذيتهم فوق الكرة الارضية . وهكذا كان لا بد من الاضراب ، وقررناه اضراباً مفتوحاً ، مهما كانت النتائج .

ننظر الى الذين كان عليهم أن يخوضوا معركة الاضراب : عيدان قمح ملفوفة بالمناديل . طيور ذات شجاعة نادرة ومصابة بالدوسنطاريا ، لشهر او شهرين كان عشرات من الرفاق المصريين والفلسطينيين المصابين بالدوسنطاريا يعيشون على كوب من الشاي وقطعة خبز متخشبة .

كان الرفاق يجففون رغيف الخبز في الهواء الملتهب . وهؤلاء هم الذين دخلوا يوم ٤ يوليو ١٩٦١ .

سبعة من الرفاق الذين انهوا مدة السجن وانتقلوا من اللون الازرق الى اللون الرمادي ــ من مسجونين الى معتقلين ــ كانوا سفينة الاضراب الاولى ، فقامت ادارة السجن بعزلهم ، في عنبر آخر بعيداً عن زنازين عنبرنا .

غير ان صوتنا قد اصبح في هواء وجرائد العالم : راديو موسكو . وراديو بغداد . جريده « الاخبار » . كف الحزب الشيوعي اللبناني المكنوبة . وجريدة « الاومانيتيه » . وجريدة « اليونيتا » . الغربان فوق معتقل الواحات الخارجة . كانت في انتظار ١٩٦ مضرباً مصرياً وفلسطينيا عن الطعام .

★ ★ ★

الجسد اصبح غابة . وهو في ايام الاضراب . تتجمع كل اشجاره وطيوره وينابيعه . وتطلق الوانها الاخيرة في صواريخ في سماء العالم .

في اليوم الثامن . مائة وأربعون معتقلا ينضمون الى سفينة الاضراب .

في الليل يصعد من الجسد كل البرق الذي امتصه عبر كل سنوات المطر . ويأخذ شكل الاغنية . طبيب السجن — السجان — كان يزور التقارير . قبل الاضراب . كان يسرق حبات الاسبرين القليلة من افواهنا . وهو الآن في ايام الاضراب . جاء يسرق صوتنا ويطالبنا بانهاء الاضراب بلا قيد او شرط . . . ؟

في الليل . تقفز سمكة من نافذة الزنزانة . مرصعة بأعشاب البحر وتنسقط بين المضربين . تحس كأن موجة تغطيك . تسمع خشخشة اوراق بعيدة مثقلة بأصوات العصافير .

احد الرفاق يضحك وهو يصيح :

— من يستطيع أن يرسم برتقالة . . . ؟

مضى احد الرفاق الى الحائط ورسم البرتقالة . وتضج الزنزانة . الحارس يتوقف امام باب الزنزانة وهو لا يفهم كيف يضحك المضربون الذين تحولوا الى طيوف وفي اليوم الحادي عشر من الاضراب .

— لو سقطت برتقالة في الزنزانة . لانفجرت كالقنبلة اليدوية وقتلتنا جميعاً بعطرها . . . ؟

يغمغم احد الرفاق .

★ ★ ★

حوصر السجن تماما الآن . واعلنت ادارة السجن حالة الطوارىء . حرس السجن في ايديهم المدافع الرشاشة والقنابل المسيلة للدموع يحيطون بعنبرنا . فادارة السجن كانت تتوقع سقوط الضحايا .

في اليوم الرابع عشر . كنا نستند الى الهواء . لقد تحولت الطيوف الى ظلال . والظلال الى اصوات لا تكاد تزي .

في اليوم الخامس عشر : جاء مندوب عن رئاسة الجمهورية — البكباشي

وحيد ابو العلا ــ وبدا يسجل اصواتنا .
ــ ما الذي جاء بكم من غزة الى الواحات الخارجة ؟
تسمع رائحة الزيتون في صوت هذا الضابط النبيل ــ جرد فيما بعد من رتبته العسكرية والقي به في السجن الحربي ــ بتهمة التعاطف معنا ــ .
في اليوم السادس عشر ، انتهى الاضراب ، وانتصرت زهرة عباد الشمس على الكرباج ، وكان ذلك في ٢٠ يوليو ١٩٦١ .
في ٢٣ يوليو ١٩٦١ ، اعلنت قرارات يوليو الاشتراكية .
ــ . . . ولكننا لا نستطيع تطبيقها او حمايتها في معتقل الواحات . وحسن المصيلحي لا يذبح الشيوعيين بكفه من اجل ان تمر تلك القرارات .
في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، جاء صوت الانقلاب من اذاعة دمشق يعلن :
ــ فسخ الوحدة بين دمشق والقاهرة .
تتذكر ــ البانيو ــ الذي ملأوه بماء النار والقوا فيه بالرفيق فرج الله الحلو . فرضوا على الشيوعيين والوطنيين ان يكتبوا بالحبر الابيض ، بينما عدو دمشق والقاهرة ــ عدو قرارات ٢٣ يوليو الاشتراكية ــ يكتب بالحبر الاسود عناوين جرائد الثورة المضادة .
الوحدة لا تفرضها الكيمياء .

* * *

بدات طرود الادوية تصل الينا واصبح لأطبائنا المعتقلين : صيدلية .
اكثر من صيدلية في غزة ، كانت ترفض ان تتقاضى ثمن الادوية المرسلة لنا ، واطباء كثيرون وعلى راسهم الطبيب المرصع الكفين بالبرق الفلسطيني : حيدر عبد الشافي ، كان يقوم بارسال صناديق الادوية .
اديب ديمتري : جسده يغيب في قميص وبنطلون ، كان يذوب كل يوم :
ــ يجب ان يخضر الرفاق .
لو القى اجدهم بعود ريحان في زنزانة ، لذهب كل المعتقلين في غيبوبة

* * *

رفيق يؤمن بحتمية الاخضرار في هذه المرحلة الرملية ، كمواجهة لا بد منها ، لبرنامج التجويع حتى الموت يقول :
ــ نحتاج الى سماد وبذور وماء .
البحث عن السماد لم يطل . فالمعتقلون الجياع في الواحات الخارجة ، يذهبون لدورة المياه ويقدمون : سمادهم .
ــ والبذور . . . ؟

السجان الذي يحضر رسالة من القاهرة ، يمكنه ان يحضر بعض البذور .

ــ والماء ...؟

ــ هناك نبع بعيد . ويمكن استدراج مائه .

يرتفع صوت المهندس الزراعي المعتقل ــ عبد المنعم شتلا ــ فتحس انه مبلل بالماء .

عرضنا المشروع على مأمور السجن فضحك هو وضباطه :

ــ مزرعة هنا ... كيف ...؟

لم يكن يتصور أن : فخري لبيب ، لويس اسحق ، حلمي ياسين ، محمود امين العالم ، الدكتور عبد العظيم أنيس ، محمود التويسني ، أحمد طه ، الدكتور فوزي منصور ، الدكتور فؤاد مرسي ، داوود عزيز ، طاهر عبد الحكيم ، عدلي جرجس ، ميشيل كامل ، ريمون دويك ، محمد شطا ، خليل عويضة ، يوسف درويش ، ابراهيم عامر ، امير اسكندر ، الدكتور كمال الدين حسين ، أديب ديمتري ، الفريد فرج ، شوقي عبد الحكيم ، محمد علي عامر ، زكي مراد ، نبيل زكي ، فريد أبو وردة ، سمير البرقوني ، زهدي ، عبد المجيد كحيل ، محمد الشامي ، عبد الرحمن عوض الله ، عمر عوض الله ، عبد القادر ياسين ، شعبان حافظ ، أحمد صادق سعد ، معين بسيسو ومحمود نصر ، وأسماء كثيرة اخرى يمكن ان يحملوا القفف المليئة بالسماد الطازج على أكتافهم ويمضوا مسافة كيلومتراً ، ليفرغوها فوق الرمال الملتهبة .

فتحت الآبار ، ونزل اليها بعض الرفاق . الايدي تمتد لتحمل تلك القفف ، كنا نمضي بها حيث المساحة المحددة لاقامة المزرعة .

الرائحة كانت كريهة ، ولكن هذه هي رائحة : حسن المصيلحي .

نزحنا الآبار في ثلاثة ايام ، في مواجهة دهشة مأمور السجن وضباطه والسجانين .

وبدانا عملية خلط السماد بالتراب . مأمور السجن أعطانا ثوراً للحراثة .

هذا الثور العظيم ، سقط بعد ايام ، سقط فوق ركبتيه ، كأنه يريد أن يقول :

ــ لقد انتهت مهمتي .

وصدر القرار بذبحه . وأكل المعتقلون لأول مرة ، لحماً له رائحة العشب الخارج لتوه من البحر .

البذور جاء بها السجانون ، ثم بعد ذلك صارت تاتي في طرود . كان لدينا خبراء في الزراعة ، مارسوا « ديكتاتوريتهم » الجميلة لأقصى حد . ولكنهم يستحقون ان يتوجوا ــ ملوكاً ــ فقد جعلوا الرفاق يحضرون .

الماء بدأ يسيل من النبع - يجري في قناة . والقناة كانت تتحول الى شرايين والرفاق يصيحون :

ــ الماء . . . الماء . . .

عشرات الرفاق المصريين تطوعوا لكي تكون للفلسطينيين مزرعتهم الخاصة، يزرعونها كما يشاؤون - قدموا لنا البذور والماء بلا شروط - واطلقنا على المزرعة : مزرعة غزة - وكان يشرف عليها الرفيق : عبد المجيد كحيل .

★ ★ ★

ــ بطيخة . . . بطيخة . . .

يصرخ احد الرفاق .

البطيخة كانت في حجم بيضة الحمامة - ولكن البطيخة كانت تكبر - البطيخة والملوخية والباميا والخيار والفقوس والباذنجان واللوبيا - وفي مزرعة غزة ترعرعت أكثر من شجيرة فلفل .

ــ لقد بدأ الرفاق يخضرون .

لم يبق غير أن ينبت السمك فوق رمال الواحات .

قرون شجيرة الملوخية او الباميا في رمال الواحات الخارجة - كانت تتحدى قرون اجهزة المباحث والمخابرات . فحينما يسيل الماء فوق الرمل - تهرب الغربان، والحداة تبحث عن منقارها فلا تجده .

نجحت مزرعة المعتقلين المصريين والفلسطينيين . وفي كل مساء كان الدخان يرتفع من كل زنزانة وتفوح الرائحة الخضراء . عبد المجيد كحيل يجلس كامبراطور متوج بالعشب - أمام البوتاغاز الفلسطيني : علبة بندورة مثقوبة - في جوفها خرقة مبللة بالمازوت - يصعد منها اللهب الازرق بين حجرين فوقهما القروانة - هذا البوتاغاز نسميه : التوتو .

انتصرنا على المصيلحي - وعلى الرمل . ولكننا فقدنا رفيقاً قديماً . . . فذات صباح - كف قلب الرفيق ــ شعبان حافظ ــ آخر الاعضاء الاحياء في الحزب الشيوعي المصري الاول - حزب عام ١٩٢١ - عن الخفقان .

كنت مع فخري لبيب وبعض الرفاق - الى جانب برشه - لحظة احتضاره . . . لقد تجاوز الستين من عمره - وكان حسن المصيلحي يعرف أنه غير قادر على الحركة - ومع ذلك فقد قذف به الى الواحات ليموت هناك - ولكي يكون موته ــ ارهاباً لنا ــ .

قتلتني العصابة . . .

بعد هذه الجملة - أغمض عينيه في ١٤ مارس ١٩٦٢ - ولكنه مات كما يجب

ان يموت هذا الجذر القديم محروما من الجنسية المصرية . كانت أول جنازة شيوعيه في معتقل الواحات . احد الرفاق المثالين وضع قطعة من الجبس فوق وجبه . وصنع قناعا لذلك الوجه القديم .

وانطلق النعش ملفوفا في بطانيه حمراء محمولا على اكتاف اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى كنت مع فخرى لبيب في مقدمة النعش ، ووراءه مشى كل الرفاق في المعتقل . . .

ونصعد الاصوات مبللة بالدمع . وحينما نصل الى مقطع :

. . . على تبركم في مهب الرياح

حمراء نخفق راياتنا »

يصعد دمعه من القلب . ويوضع الجذر القديم في سيارة السجن . الى محطة اسيوط . ومنها للاسكندرية ليدفن هناك . ويتقدم له التراب جواز سفره المصري .

احد الرفاق يصرخ :

ـــ مات شعبان حافظ

عاشت الشيوعية !

* * *

من المزرعة كان علينا ان ننتقل الى الجامعة . الرفاق الذين اعتقلوا في يناير ١٩٥٩ . كان يمكن أن يصبحوا في السنه الجامعية الرابعة الآن . . .

وما دام هناك طلاب وعمال وفلاحون واساتذة جامعة . فلماذا لا نكون هناك جامعة . . . ؟

وصدر القرار بانشاء الجامعة . وجاء في القرار : جامعة شعبان حافظ .

وايه جامعة يقوم بالتدريس فيها : الدكتور عبد المنعم عبيد . الدكتور فوزي منصور . الدكتور حسين كمال الدين . الدكتور اسماعيل صبري عبد الله ، محمود امين العالم . الدكتور فؤاد مرسي . صادق سعد ، ريمون دويك ، يوسف درويش . حمدي عبد الجواد . فخري لبيب . . . الخ . . .

في جامعة شعبان حافظ . كان هناك كلية لتدريس اللغات الاجنبية . وما اكثر الطلاب والعمال والفلاحين الذين خرجوا من المعتقل وبعضهم أصبح يعرف لغتين او ثلاث لغات . وما الذي يستطيع أن يفعله حزب في معتقل ، أكثر من اختراع مزرعة وتأليف جامعة ، واقامة مسرح ، والانتصار على سياسة العداء للشيوعية والديمقراطية ـــ الانتصار على حسن المصيلحي ـــ .

ـــ اننا نقترب من نهاية عام ١٩٦٢ .

يغمغم أحد الرفاق . طار من طار من السرب . وبقي في معتقل الواحات

الخارجة من السرب الفلسطيني ستة طيور .

★ ★ ★

حرس كالغربان ، يرتدون الملابس السوداء ، يظهرون في مكتب مأمور السجن . احد السجانين يتسلل ليهمس :

ـ عملية ترحيل . . .؟

ـ الى اين . . .؟

ويسأل احد الرفاق :

اجل الى اين . . .؟ لقد تركنا طيور النورس وراءنا فوق شاطىء غزة في ٢٣ ابريل ١٩٥٩ وهذه الغربان لن تقودنا الى السفن أبداً .

★ ★ ★

الترحيل كان لنا. واقام الرفاق المصريون مهرجان الوداع. فرشت البطاطين فوق البلاط والقى فخري لبيب كلمة الحزب الشيوعي المصري .

قادنا الحرس الى لوري ، وانطلق بنا الى أسيوط .

ـ الى اين يا جاويش . . .؟

ولكن الجاويش لا يرى صوتك .

في محطة اسيوط ، ركبنا القطار .

ـ الى اين يا حضرة الصول . . .؟

وتقدم له سيجارة ، تشعلها له :

ـ الى القاهرة .

وتسأله :

ـ ومن القاهرة الى اين . . .؟

يتردد ، ولكن صوته يخرج من الدخان :

ـ حينما نصل محطة القاهرة ، هناك من ينتظرنا وهو وحده الذي يعرف أين ستمضون بعد محطة القاهرة .

ووصلنا محطة القاهرة. حرس في المحطة وضباط. ومن المحطة الى لوري.

ـ الى اين يا حضرة الضابط . . .؟

كان يبدو عليه ، انه غير سعيد بهذه المهمة التي يقوم بها .

ولكن اللوري المغطى تماماً ، كان يشق طريقه الى العباسية . كنا نعرف الطريق جيداً . ينحرف اللوري ، ويدخل شارعاً فرعياً . . . لم تكن بحاجة الآن الى سؤال الضابط . . . الى اين يمضي بنا ، فالغواصة ارتفعت من الماء الاصفر : بوابة السجن الحربي .

الدَفـتر الحاديْ عَشـَر

سكنا السجن الحربي — في ٢٣ ابريل ١٩٥٩ — وتم ترحيلنا منـه الى الواحات الخارجة في أغسطس ١٩٦٠ — وها نحن نعود اليه من الواحات الخارجة مرة ثانية في النصف الثاني من عام ١٩٦٢ .

مضوا بنا الى العنبر نفسه الذي تركناه منذ اكثر من عامين ، تغير الحرس كله وبقي حمزة البسيوني قائداً للسجن الحربي ، الحداة لا تزال ترفرف في فضاء السجن . والجنود الذين يمضون مدة العقوبة ، لا يزالون يركضون حفاة في دائرة واحذيتهم معلقة في رقابهم ، والسجانون يلاحقونهم بالكرابيج . المسجونون الذين اقتربوا من يوم الافراج ، كانوا ينظفون ساحة السجن من الحصى .

الكلب « لاكي » مات . ولكن هذا « الجد » ، قد ترك الكثير من الاحفاد لكي يرثوا من بعده زنازين السجن الحربي .

تتسلل الى زنزانتك القديمة — في الدور الثاني والاخير — لم تلمسها فرشاة. بصمات اصابع داكنة لا تزال فوق الحائط — حينما مسح السجان كفه المصبوغة بدم فريد أبو وردة .

الاسم الذي حفر ذات يوم بزر القميص . لا يزال هو الآخر فوق الحائط وفوق الباب الحديد .

ماذا تفعل هنا . . . ؟

ونخرج والصوت منقط بالدم :

ـ كنت أسكن هذه الزنزانة قبل عامين .

★ ★ ★

الايام تمر في صمت . نطالب الحرس بمقابلة قائد السجن . فيأتي الجواب :

ـ ليس لديه ما يقوله لكم .

ولكن حسن المسيلحي كان لديه ما يقوله لنا .

بين وقت وآخر كنا نلعب ـ البريدج ـ رسمنا العلامات بالقلم الكوبية فوق كرتون علب السجاير . كنا وحدنا في العنبر . والحرس كانوا يعسكرون في زنازيننا . اصبحنا نأكل معا وندخن معاً . ثم تحولوا الى سعاة بريد . ومن الراديو الترانزستور الذى كان يحمله جاويش العنبر . كنا نستمع الى نشرات الاخبار . ثم اصبحنا نشتري الجرائد من الحرس . وسمحوا لنا بكتابة الرسائل واصبح عنواننا في قطاع غزه : السجن الحربى .

★ ★ ★

بدا الجراد يرحل من هواء القاهرة ومن جرائدها . وحنجرة احمد سعيد . مدير اذاعة صوت العرب ـ تلك القطعة السوداء من الصابون ـ . راحت ندوب رغوتها تتساقط من فمه .

مقالات الرفيق « بالاييف » ـ مراسل جريدة البرافدا ـ في القاهره تظهر في الجرائد المصرية . واسمنت السد العالى . اخذت رائحته تتسلل الى زنازيننا .

ـ لقد ملاوا « البانيو » بماء النار للشيوعيين . وها هو الاتحاد السوفياتى . يملا « بانيو » آخر . بماء السد العالى للفلاحين المصريين .

صوت احد الرفاق صعد من يده .

حسن المسيلحي يخرج من مغارته اخيرا . يدوي صوت البوق . السجن الحربي في حالة طوارئ . صوت حارس بوابة العنبر . يصعد من قدميه :

جاويش العنبر . يخرجنا من الزنازين . نصطف في طابور ونمضي في خطوة سريعة الى مكتب قائد السجن الحربى .

ـ زائر كبير في انتظاركم .

جاويش العنبر يدخل الآن في ثياب السجان .

حسن المصيلحي وراء مكتب ــ حمزة البسيوني ــ ولكن كل واحد منا ، قد تحول الى ــ متادور ــ واصبح يعرف ، كيف يصارع هذا الضبع ــ المصاب بالجدري ــ .

ــ الا تريدون ان تخرجوا . . .؟

ويرتفع صوت رفيق :

ــ لم يعلن احد منا الاعتصام في زنازين السجن الحربي .

ينهض الضبع :

ــ اكتبوا واخرجوا . كما كتب رفاقكم وخرجوا .

صوت رفيق ثان يرتفع :

ــ انكم لم تعلمونا الكتابة والقراءة في السجن الحربي . ومعظم رفاقنا الذين خرجوا . خرجوا اميين .

يتقدم الضبع من وراء الطاولة :

ــ كلكم مدرسون الطبع . . .؟

ويرتفع صوت رفيق ثالث :

ــ انني بائع جوال . . .

يخرج علبة سجائر ويدور بها علينا . لا احد من الرفاق يمد يده . مطر اجساد رفاقنا الذين ذبحهم هذا الضبع . كان يسقط فوق ايدينا .

يلتفت الى حمزة البسيوني :

ــ أعطهم أوراقا واقلاما وسيكتبون .

* * *

ولقد كتبنا فوق تلك الاوراق رسائل وقصائد ومذكرات احتجاج على استمرار اعتقالنا للحاكم الاداري العام لقطاع غزة ــ الفريق العجرودي ــ .

وجاء جاويش العنبر فحمل المذكرات ــ فرح لاننا كتبنا ــ وذهب بها الى ــ حمزة البسيوني ــ كان احد النجوم قد باض في يده .

بدأوا يقفلون علينا الزنازين . بعد ان كانت مفتوحة . ويؤخرون تسليم الرسائل . واصبح على الرفيق المريض أن يكون طبيب نفسه . فحتى صيدلية السجن التي كانت زجاجة من الماء الملون . اقفلوها في وجهنا . والذهاب الى ــ الكانتين ــ لشراء السجائر والمعلبات . اصبح مهمة صعبة . والكلاب التي دجناها على مدى شهرين . تذكرت انيابها . وحرس السجن صاروا يهزون كرابيجهم .

ويسقط المطر ...

الآن ــ وادي غزة ــ يفيض ، ويندفع الى البحر ، وهداياه على الشاطيء ــ عشرات البحيرات الصغيرة ــ للبط القادم من بلاد بعيدة .

وادي غزة لم يستنكر البحر . فهو يمضي اليه مفتوح الذراعين ، وقد اتسعت ضفتاه . ها هو العام الرابع ، ولم نسمع هدير البحر .

الآن الصيادون في جباليا وغزة وخان يونس يذهبون وراء الامواج ، ويصطادون ــ كلاب البحر ــ في عام ١٩٤٩ ، ذهب الصيادون بعيدا في بحرهم ، جاوزوا الكيلومترات الاربع التي حددوها لهم . لقد نقلوا الاسلاك الشائكة الى البحر .

ــ هل يبتلع الصياد شبكته ، ام يلقي بها في البحر ...؟ القى الصيادون بشباكهم وجاءت زوارق الحراسة الاسرائيلية ، قتلت الصيادين ولفتهم بالشبك المرصع بالعشب والسمك والقت بهم في البحر ليسحبهم التيار الى شاطيء غزة ، كي يكون في موتهم ــ على هذه الصورة ــ ذلك الانذار لبقية الصيادين .

★ ★ ★

يسقط المطر فوق زنازيننا في السجن الحربي ، بعد عامين ، لم نر فيها غيوماً في سماء الواحات الخارجة .

المطر يكسر هواء السجن الحربي ، ويطرز اجساد المعتقلين بالشامات .

كل قطرة مطر شامة .

بعد المطر ، جاءت عائلاتنا من قطاع غزة . وكان القرار ان يذهب الجميع الى ــ التخشيبة ــ حيث تتم الزيارة ــ لا زيارة فردية ــ . فالزائر الذي يأتي ، كان يطلب ــ المعتقلين الستة ــ .

اصوات كثيرة انطلقت تطالب باطلاق سراحنا ، والحملة العربية والعالمية ، قد اخذت تشتد . طلاب جامعة لومومبا في موسكو ، قرروا تظاهرة تأخذ شكل المهرجان من اجلنا .

ــ قالوا عند منتصف فبراير ، سيفرج عنكم .

ولكن منتصف فبراير قد جاء وانتهى فبراير ، وقرار الافراج لا يزال محجوزا في جيب حسن المصيلحي . كان لا يزال يقاتل للاحتفاظ بزنازينه وكرابيجه وعصيه وكلابه وسجانيه .

ــ سوف يصدأ لحمهم في الزنزانة .

ولكن قرار الافراج قد جاء اخيرا في مارس ١٩٦٣ ، مع الحرس الفلسطيني .؟

جاويش العنبر والسجانون يقتحمون زنازيننا وهم يصيحون :
ــ الافراج ... الافراج ...

★ ★ ★

يرتمي كل رفيق فوق صدر رفيقه . هذه العائلة الشيوعية المؤلفة من ستة ابناء . اربعة اعوام معا . الدقائق تمر . وعينا كل واحد منا في عيني الآخر . لا احد يعرف ذلك اللون الذي يتوهج في عيني المعتقل . الذي لم تسقط عيناه . زربى من النحاس في معطف سجانه . الآن يستطيع الواحد منا ان يرى الى عيني امه وابيه . يستطيع ان يواجه البحر بتلك العينين اللتين لم يلوثهما حبر الارتداد .

ــ ماذا تنتظرون ....؟

يضحك جاويش العنبر ...

لم نكن نملك ثيابا ولا حقائب . ابقينا بعض النقود . واعطينا الباقي لحرس السجن . خرجنا من بوابة العنبر . في انتظارنا كان احد ضباط المباحث الفلسطينيين ومعه الحرس الفلسطيني . بعض الحرس كانوا من الذين قاموا باعتقالنا في ٢٣ ابريل ١٩٥٩ . وها هم يجيئون الآن بقرار الافراج .

هؤلاء المباحث . كل واحد منهم . لا يتردد في اعتقال الجنين . حتى لو كان في بطن امه . وفلسطين وكل فلسطين كانت ولا تزال وستبقى بالنسبة لهم هي : الكلبشة والزنزانة والكرباج .

ورغم كل ذلك فهم يصافحوننا الآن. يصافحون ويعانقون. وعليك ان تتذكر. ان عليك ان تعتذر الى الزيتونة . حينما تسألها . قطعة صابون . لكي تغتسل .

في اللوري الذي خرج من بوابة السجن الحربي . يتنهد احد الرفاق :

ــ لقد خرجنا .

بوابة السجن الحربي تغلق وراءنا .

ــ ارى آثار اقدام تمضي . ولا ارى آثار اقدام تعود .

هذا هو شعار السجن الحربي ...

ولكن على حائط كل زنزانة . كتب كل رفيق :

ــ « من ابريل ١٩٥٩ الى مارس ١٩٦٣ » . وكان هذا . هو كل ما يمكن ان نقدمه للسجين القادم .

★ ★ ★

تبتعد ابراج السجن الحربي الاربعة . نصبح في الشوارع . كنت انظر الى

الرفاق ، واحس ان كل واحد منهم كان يريد ان يصرخ في الشارع :

لا مستشفى انبنت على مريض
ولا سجن انبنى على سجين
فلسطيني طالع من السجن
بعد اربع سنين
عقبال عندنا وعندكم يا حبايب
وما اكثر المعتقلين في الشوارع ولكنهم يمشون

★ ★ ★

.ن يصبح شباك القطار . اجمل ورقة :
ـــ سرتك زهرة عباد تسمس .
ـــ ذراعاك ضفيرتان .
ـــ يدك هدهد .
ـــ مشطك في شعرك سفينة . وكل خاتم في اصبعك طائر بجع .
ـــ مخدة سليمان حشوها بالفراشات .
وانا اضع راسي فوق مجدافك .

★ ★ ★

. القصيدة تركب القطار . ونحن صغار ، كنا نضع المسامير فوق القضبان وننتظر مرور عجلات القطار فوقها ، ونعود فرحين بالمسامير المطروقة .

اربعة اعوام ونحن ممددون فوق القضبان . مر علينا اكثر من قطار . العجلات طرزتنا ولكنهم لم يستطيعوا ان يطرقونا كما يريدون اقلاماً واوراقاً ودبابيس ومشابك وكرابيج وكلبشات في مكاتب مكافحة الشيوعية .

ونحن صغار . كنا نصنع طائرات من الورق وعيدان البوص ، نصنع الطائرة على شكل نجمة . من الورق المقصوص نلصق للنجمة ذنباً ، من ميزان الطائرة تتدلى الخيوط . تركض والطائرة في يدك بضعة امتار ثم تفلتها في الريح . نظل ترخي لها الخيوط حتى ترتفع بعيداً في السماء .

من نافذة القطار كان كل رفيق يرخي خيوط طائرته . والطائرة تتجه الى محطة رفح المصرية .

★ ★ ★

سماء فلسطين .
لقد بدأنا نقترب . يتحول كل اصبع في يدك الى ناي .

الرفاق يندفعون نحو الشبابيك . يصرخ رفيق :
ــ محطة رفح الفلسطينية .
ــ الهواء الفلسطيني .
وتكاد تسمع رائحة الهواء القادم من شجيرات الاثل .
نزلنا في محطة رفح الفلسطينية . كان هناك لوري مغطى في انتظارنا .
حينما تلمس قدماك التراب . يكاد يشربك .
من مركز بوليس الرمال . مضى كل واحد منا الى بيته .
تمشي لبيتك . لقد نما الشعر قليلا فوق راسك . تمشي كانك خارج من فم سمكة علكتك .
تريد ان تظل تمشي . في الزنزانة تريد إن تركب حصانا يجري بك حتى يدخل البحر . والآن في الشارع تريد زورقاً ومجدافين .

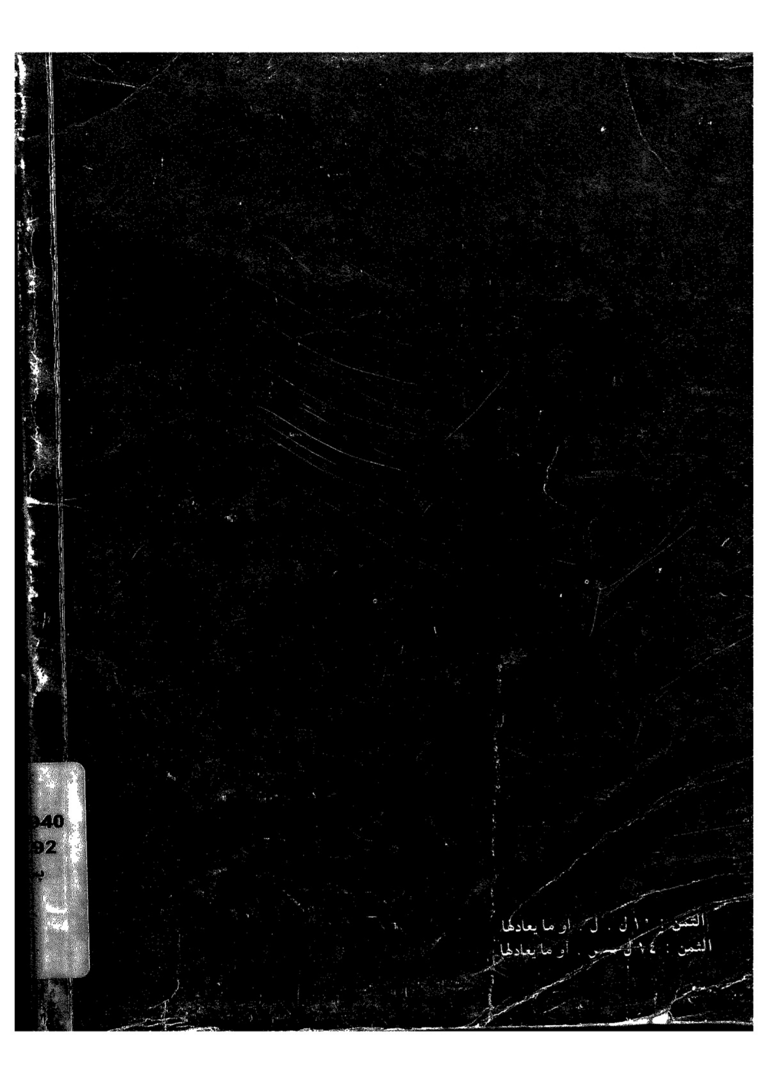
★ ★ ★

بوابة البيت الخشبية مفتوحة . تدخل . اول ما تتطلع الى مكان شجرة الجميز . لقد قطعوها . يقولون ان جذور شجرة الجميز تكسر الأسمنت وتشقق الجدران .
تتطلع الى الشبابيك . الزجاج لا يحتفظ بالمطر . والخشب لا يحتفظ بصوت الرعد . تمضي اكثر في بيتك . الشجر ذهب والحديقة الصغيرة زرعوها بالعشب .
في البيت ساكن جديد .
يأتي حارس البيت ، وقبل ان يسالك ماذا تريد يخرج صوتك من عينيك :
ــ لا شيء . كان هذا بيتي .
ويأتي من البحر صراخ موجة . تضرب الشاطىء ، ويرتفع رذاذها حتى يصل الى ابعد نجمة في السماء .

الفهرس

	الصفحة
الاهـــداء	٥
هذه الدفاتر	٩
النزول الى الماء	١٥
الدفتر الاول	٢٥
الدفتر الثاني	٣٩
الدفتر الثالث	٥٥
الدفتر الرابع	٦٧
الدفتر الخامس	٧٥
الدفتر السادس	٨٩
الدفتر السابع	١٠١
الدفتر الثامن	١١٥
الدفتر التاسع	١٢٥
الدفتر العاشر	١٣٥
الدفتر الحادى عشر	١٤٣

طبع على مطابع شركة تكنوبرس الحديثة — ش. م. ل. — بيروت
تموز ١٩٧٨


الثمن : ١٠ ل . ل . او ما يعادلها
الثمن : ١٤ ل س . أو ما يعادلها